

الفصل الرابع

مختارات من أدبه^(١) :

مختارة من وادى الفريكة

الريحانيات مجموعة مقالات وخطب وشعر مشور. ووادى الفريكة هي المقالة الأولى من الجزء الأول الذي طبع سنة ١٩١٠. وقد نقلت الصحف والجلات هذه المقالة مراراً لما فيها من صدق الوصف وحب الطبيعة والصور الأدبية الفاتنة التي استوحاها الكاتب من قلب الوادى .

فى صباح يوم من الأيام التى تقف حائرة بين الحريف والشتاء لبّيت دعوة الوادى . خرجت من بيتى بمعطف مشمع وأخذت أفقر عن الربى وأدباً من تحت الصخور حتى وصلت إلى قلب الغاب . نزلت لأ تفقد الوادى بعد أن اغتسل بسحابة الحريف الأولى . هبطت على عادتي لا ترويحاً للنفس كما يقال بل ابتغاء الإلهام والفائدة : أجل أنا أقصد الوادى كما يقصده الفلاح ، ولكن فأسى ومنجلى يختلفان شيئاً عن فأسه ومنجله وأحمالنا ونحن عائدان تختلف كثيراً بعضها عن بعض . على أن حطب الغاب يفيد فى هذه الأيام أكثر من حطب الخيال والفلاح هو الفيلسوف الحقيقى ، ولكن ذلك قلما يهمنى . قد انحدرت إلى الوادى ووقفت على صخر يشرف على النهر وتأملت فعل العواصف والأنواء الليلة البارحة - تلك الليلة التى دخل إله الشتاء بعروسه الطبيعة . كيف لا ومياه النهر والسواقى حمراء كالدم ووقفت هنالك مبتهجاً فأحسست بأن روحى انفصلت عن جسمى وطارت فوق الأشجار البليلة وفوق الصخور الشهباء فى الصيف ، السوداء بعد الأمطار . طارت وطار معها ما تراكم على رأسى وقلبي من الأفكار والخيالات والأمانى ، طارت مسرعة صامتة كما يطير السنونو والحسون فى

(١) كما اخطارها أخوه الأديب المفكر الأستاذ البرت .

هذا الفصل . شعرت بأن روح الوادى قد اتحدت فى وروحي قد اتحدت بالوادى فأنا إذن والوادى سواء : فى نفسى ما فيه من الظلال والخيالات والكهوف . فى نفسى ما فيه من الصخور الشائخة والمنحدرات الهائلة والسواقي الفائضة والأنهر الجارية . فى نفسى ما فيه من العصافير والجنادب والنسور ومن الهوام والذئاب أيضاً أيها القارئ البعيد القريب .

صعدت قليلا وجلست تحت خرنوبة غضة وتنفست متنشقا هواء الأحرار المنعش فكاد يكون لنفسى صدى فى حفيف الأوراق . فى ظل هذه السكينة يكاد المرء يسمع خفقان قلبه . وعند توقلى فى الصخر سمعت صوت رفرقة العصافير فالتفت إلى جهة الصوت وإذا بسرب كبير من السنونو فرمى أمامى ففكرت فى نفسى قائلاً :

لو كان للظير أن يقرأ الأفكار لما كان هذا السرب يفر الآن من وجهى بل كان يجيئى مغرداً فأقبله ويقبلنى ويسير بعدئذ كل منا فى سبيله . ولكن إخرافى البشر لم يعودوا الظير مثل هذا والسنونو لم يقرأ شيئاً حتى اليوم مما أكتبه . إلى الآن لا يعرفنى . وهل يلام على ذلك والإنسان نفسه لم يزل يعجز عن فهم ما انطوى عليه الإنسان ؟ .

فى الباب

وهذا أيضاً المقال الأول من الجزء الثانى من الريحانيات الذى طبع سنة ١٩١١ . وفى هذا المقال يكشف لك الكاتب عن أمنيته فى الحياة ، تلك الأمنية التى أخلص لها الأمين وجعلها دستوراً له حتى المات .

لا الحمد ولا الشهرة أمنيتى القصوى . ولا الجاه ولا الثروة ولا السيادة ولا العظمة وإنما أمنيتى الجوهرية الأولى هى أن أكون بسيطاً فى أعمالى . صادقاً فى أقوالى . مستقيماً فى مبادئى وآرائى . فطرياً فى تصرفى وسلوكى . حرراً فيما أحب وما أكره ؛ وبكلمة أخرى أود أن أكون دائماً نظيف الجسم نزيه العقل والقلب بعيداً عن التصلف

والزخرف والعجب والمصانعة . بعيداً عن الجبن والخوف والتذبذب . بعيداً عن الخجل الذى يذئد النفس ويميت الحقيقة . بعيداً عن الكذب والجريزة والمداهنة والرياء . على أن أقتبل ما يقابلنى من الصعوبات فى مسالك الحياة باشاً جاداً ثابتاً صابراً متجلداً . على أن أناهض الفساد والضلال فى الناس وألا أكره أحداً من الناس . أود أن أعيش دون أن أبغض أحداً ، وأحب دون أن أغار من أحد . وأرتفع دون أن أترفع على أحد . وأتقدم دون أن أدوس من هم دونى أو أحسد من هم فوقى . هذه هى سنتى وللغير أن يتخذوا لهم سنة توافقهم . للغير أن يسلكوا ذات المسلك إذا شاؤوا واستطاعوا . ليس من شأنى أن أتدخل فى شئونهم ولا أن أرشدهم منذراً أو أعظمهم متآمراً متهدداً . على أن أعيش صادقاً مسالماً مستقيماً . وللناس أن يعيشوا كما يطيب لهم . لا أحب أن أنصح أحداً متى كانت نصيحتى بنت فكرة زائلة لا بنت حقيقة دائمة . ولا أن أنضم إلى حزب من الأحزاب . (مراقبة) أو جمعية من الجمعيات مهما كانت صبغاتها . ومهما تسامت غاياتها . ولا أن أساعد أحداً لا يعمل فى مساعدة نفسه . وإذا كان فى ما يلهم الناس إلى الخير ويرفعهم درجة واحدة فى سلم الرقى العقلى الروحى أحب أن أظهره بالمثل والإشارة واللفظ لا بالإنداز والوعيد والتأمر . أحب أن تشع حياتى ولا أحبها أن تفرقع . أحب أن تكون كأحد الكواكب السماوية ، لا كسهم من الأسهم النارية .

المندوب الأسمى

هى ذى صيحة من صيحات الريحاني الداوية يلقيها فى آذان أبناء بلاده لتوقظهم وتثير نفوسهم ، وتدفعهم إلى الجهد والعمل والنضال . وما كان أبلغ هذه الصيحات تقذف بها نفس الكاتب المتأججة ! والمقال هو فصل من الجزء السادس الغير المطبوع من « الريحانيات » .

رأيتة فى ساحة المدينة ، وسمعتة يخطب فى الناس ، فذكر وقال : أنا المشيد ، أنا المؤيد ، أنا أخو الخادم والسيد .

ورأيتة يمشى فى الحقول ، وسمعتة يقول : أنا الحارث ، أنا الزارع ، أنا الجاني والشارع .

وها هو يصعد الجبال ، وينشد نشيد الأبطال : أنا الفاتح أنا المعبد ، أنا الحافظ والحامي . الصخور والوعور تُدكّل أمامي ، والقنن والسحب مطايا أحلامي .

وها هو يسير على موج البحار ويرسل صوته ترتيلاً : والمعجزات ، ورب الكائنات إن الأرض لمن يسعى ، وإن لمن يسعى السموات .

وها هو يطير في الفضاء المغيم ، ويهتف هتاف من ظفر بالنعيم : تحت ناظري يذوب الضباب وأمامي تتبدد السحب ، وحول جناحي تنبثق الأنوار . هو الفكر العامل الغلاب ، هو الروح الشامل الوهاب ، هو النائر ، النائر ، النائر على الدوام ، يشعل النار ويشحد السهام .

هو عدو اليأس والجمود ، ومفكك السلاسل والقيود ، يحدد أيامه كالربيع ، ويبدأ ، ويبدع ، ويذيع .

هو الموقظ في اليائسين ، روح اليقين ، وهو المعزّي ، وهو المعين .

هو الحامل المعول والمشعال ، ينير سبيل الحق ، ويهدم صروح الضلال . هو المرشد ، والرائد ، والدليل ،

هو الجبل المشرق ، وهو الروض العاطر الظليل :

* * *

هو مندوب الحياة من لدنه تعالى ، تباركت آياته ومعجزاته .

هو المندوب الأسمى في وفياك ، وعلىّ وعليك ، فاستمع إليه : إن كنت مكتئباً ، فلا تكن يائساً .

وإن كنت يائساً ، فلا تكن جامداً .

وإن كنت جامداً ، فاذاًكر أنك خلقت للخلود .

فهل تريد أن تُخلد كالجمود^(١) ؟

إن المذلّة لفي الحياة الجامدة ، لا في الموت .

وإن الموت على رأس الجبل لتور يضيء .

(١) الجمود : الصخر الصلب القاسي .

فإن مت في الغور ذليلاً ، عشت خالداً في المذلّة .
وإن عشت حرّاً كريماً ، ومت حرّاً كريماً ، كانت الحرية ركننا ، والكرامة
نوراً ، لخلودك السعيد .

أنا المندوب الأسمى عليك وفيك ، فاستمع إلى :
كن مغامراً ، وكن جسوراً ، وكن أبيضاً ،
فإن الله يحب المغامرين ، الجسورين ، الأبية .
وكن مجاهداً ، وكن مثابراً ، وكن في الحق عتياً ،
لأن الله يحب المجاهدين ، المثابرين ، العتاة .

أنا المندوب الأسمى فيك ،
أنا الرسول الأقدس إليك .
ولقد جئتك من العالم الأعلى ، والبلد الأقصى ^(١) ، من الجبل المقدس جئتك ،
ومما وراء الأفق الأنور ،
وهذه حقائبى وقد كُسيّت بالغبار الذهبي والفضي ، غبار السماء ، وغبار
الجبل والبيداء .
وهي مملأى بالكنوز الخالدة .
إني أحمل إليك هدية من الشمس ، وأخرى من القمر .
وأحمل إليك سلام الجوزاء والمجرّة ،
وذكرى الفيض الشامل العجيب المُثبت الأزل والخلود في سلسلة الحياة .
وأحمل إليك رسالة من رب الكائنات ، كلمتها الأولى : إلى الأمام ، وكلمتها
الأخيرة : إلى الأمام على الدوام .

(١) الأقصى : الأبعد .

وقد جئتك بغيرها من الهدايا الغالية الخالدة .
 إن في هذه الحقيبة بجزراً من شذا الورد والياسمين ،
 ومن طيب الرياحين ،
 ومن بهجة المروج والبساتين ،
 وفي هذه الحقيبة فيوض من سكينه الغابات ،
 ومن طمأنينة الربى ،
 ومن شمم الرواسي (١) ، وكرم الأودية ،
 ومن عبير الصنوبر ، وبخور البطم ، ونفح الغار ،
 ومن عنبر العصفور والوزال ، وسحيق المسك والجلنار .

• • •

هل أنت بائس مكروب ؟
 هي ذى هدية الفجر إليك ، وهي ذى هدية المنعيب —
 بجزراً من النور الهادي فوق بحر من الألوان الفاتنة ، فوق بحر من ذوب
 اللججيين ، فوق كنوز من اللؤلؤ والمرجان ، والزمرّد والياقوت ، وقد صُهرت كلها
 في بوتقة الشمس .

• • •

هل أنت بائس محزون ؟
 إن في هذه الصندوقة موسيقى الحياة —
 ألحاناً مطربة شجية ، وألحاناً تضرم في الدم ناراً قدسية ، وألحاناً تسكن
 منك العصب والبال ، وألحاناً هي السحر الحلال .
 جئتك بها من فم البلبل والهزار ،
 ومن قلب السواقي والأمطار ،
 ومن الجنادب في الأدغال ، والأجراس في الجبال ،

(١) شمم الرواسي : أعالي الجبال .

ومن صغير الرياح في الأودية الندية ،
ومن هدير الأمواج على الشواطئ الذهبية .

• • •

إني عدو اليأس ، ومعين اليائسين .
جئت أبعث فيك المرح والحبور ، والهمة والنشاط والأمل والإيمان ، وحبّ
المغامرة والمغالبة .
جئت أقول لك إن الصحة والمال والبنين لأشياء تُذكر إذا ما ذُكر الجمال
وحسن الحال .

ولكن أجمل منها الشجاعة وعزة النفس .
وأجمل منها الحرية ، والمثل الأعلى في الحياة .
أجل . إن الورد في وجنتيك ، لخير من الذهب بين يديك .
ولكن الكرامة والإبادة والحسارة هي خير من الصحة والمال .
بل أقول لك إن غصبةً لكرامة ، لخير من اليسر والسلامة .
وإن جنوناً في سبيل الحق والحرية لخير من الرصانة والعبودية .
وإن عزاً في الممات لخير من حياة شاكية باكية ، تتوسد اليأس وتلتحف
الخنوع .

• • •

فهل أنت ممن يتوسدون اليأس ويلتحفون الخنوع ؟
إن كنت كذلك ، وكان ما جئتك به باطلاً في نظرك ،
فهناك المسدس وفيه كل ما تستحق — رصاصة واحدة لا غير .
إنما أقول لك أنا المنتدوب الأسمى فيك ، أنا الرسول الأقدس إليك ،
أقول لك الكلمة الأخيرة .
قبل أن تدفن الرصاصة في صدرك ، ففكر قليلاً ،
فكر في خلودك بالمذلة .
ثم اشرب من الماء كأساً أو كأسين .

واخرج إلى العراء وامش ساعة أو ساعتين ،
 امش مشية من يفر هارباً من نار سارية أو ذئاب كاسرة .
 بل مشية مفتون مجذوب ، مجنون — مفتون بفكرة أو خيال ، مجذوب إلى مهبط
 الوحي والكمال ، مجنون برب الطبيعة والجمال .
 واذكر هداياى إليك .
 أنشدها تجدها حولك وفيك .
 فتعود إذ ذاك إلى بيتك وأنت رب نفسك ، ربّان سفينتك
 تعود وفيك من الهمة والنشاط والمرح والحبور وقوة الفكر والإرادة ومن
 الثقة بالله وحبّ المغامرة والمغالبة ما يكفيك لتنقذ نفسك وتنقذ غيرك من
 غمرات اليأس ومن عبودية الحمل والخنوع .

ومن نقده :

الشعر والشعراء

يتبين لك في هذا المقال المختار من الجزء الثالث
 من الريحانيات ، طبع ١٩٢٣ ، أن الكاتب طرق
 باباً واسعاً في النقد وتحدي قيود الديباجة والورن في
 الشعر .

الشعراء اثنان شاعر قومه وزمانه . وشاعر العالم وكل زمان ، الأول ينذر في
 شعره ما يبقى شعراً إذا ترجم إلى لغة أجنبية . والثاني عكس الأول . وقد يجيء
 في شعر هذا ما هو من طبقة شاعر قومه وزمانه . رقد تعلق صناعته على قريحته في
 حالات للنفس يغلب فيها المكتسب على الفطري . وقد يكون الشاعر الأول بعيد
 الإشارة علواً لا اتساعاً ، فينظر إلى الأشياء والأكوان من ذروة ، سماؤها صافية
 ولكن أفقها محدود صغير . كثير المضايق والسدود . فيرى أصول الأشياء ورؤوسها
 ولا يرى ما تشعب وامتد من أطرافها . وشعراء العرب ما عدا الفارص والمعري
 من هذه الطبقة لأن في شعرهم تغلب الصناعة الشعرية الحقيقية . فيجىء
 ما ينظمونه شعراً عربياً فقط لا شعراً على الإطلاق .

أما الفارص وأبو العلاء فيكادان يعلمون على هذا . كل في طريقته . وما تقيدت النفس فيهما بظاهر الأشياء الزائل أي بتقاليد القوم وروح الزمان . وقد يستغرب ذكرى هذين الشعارين كأنهما صنوان وقد اختلفا طريقة ومذهباً . على أنهما متشابهان عند من دقق النظر في شعرهما وحياتهما تشابهاً جوهرياً جديراً بالاعتبار . ففي شعر الاثنين ما لا يختص بأمة واحدة من الأمم أو بزمن من الأزمنة . بل هو جامع شامل . سماؤه بشرية لا عربية . وزمانه لا هجري ولا مسيحي . وفي حياة الشعارين حيرة وورع يتناوبهما الشك واليقين فيعلو العقل في « رهين المحسبين » على النفس ، وتعلو النفس في شاعر السالكين على كل معقول ومحسوس . ويجوز لنا أن نقول : إن أبا العلاء من المتصوفين في بعض حالاته كما أن الفارص في بعض أطواره من الماديين . شعر أبي العلاء كالموشور صاف . ولكنه بارد . تنعكس فيه حقيقة الحياة فتتلون . فتحرق فتتير ما يعالجه من المواضيع . شعر الفارص قبس من النفس نرى في لحيه أشكال أزهار من الحب جميلة رطوب ألفاظ تغرد حول عرش الأسرار .

وحقاً ما يقال إن الشعر من الشعور . ومن الشعور ما رق فسال . ودق فغمض . واشتد فاضطرم فأحرق فأثار . ومن الشعور ما هو مكتسب ومنه ما هو فطري . فيغلب في الأول التصنع وفي الثاني الهوى أو الهوس . وقد قال أحد الفلاسفة : إن أول الهوس الشعر وأحسن الشعر ما كان عن هوس وغرام . وعندى لا ينبغي أن يكون الشاعر . شاعر النفس . عاقلاً أو فيلسوفاً . فالهوس أو الهوى أو النزعات الشديدة إنما هي صوت النفس وتنهدياتها فتشجى تارة وتطرب طوراً . وطوراً تزعج وتكرب . وفي كل حال إن نزعات النفس لهي ماء الشعر وغذاؤه وخمره . وكل شعر بدونها خاسي بارد مشحوب اللون عليل . وفي هذه النزعات الشديدة لا يخضع الشاعر لشيء من أشياء العقل العادية السطحية فتظهر في كل أقواله ونغماته في مظهر طيه الدعوى التي يظنها الشاعر من لوازم الصناعة . ومن واجبات النبوغ . وقد تشتد هذه النزعة في بعضهم حتى تصبح نوعاً من الجنون وتتشابه باطناً في من اختلفوا ظاهراً وشكلاً — فهوس

للفارض بالأسرار يتغزل بغوامضها . مثل هوس أبي العلاء بالعقليات وتغزله بالفناء والاضمحلال . ومثل ورع أبي العتاهية حتى أصبح الورع في شعره نوعاً من الخجل . ولكن المبالغة طبيعة في الشاعر لأن شعره مجموع شعور الناس . وإن جاز لنا أن نشبه المجتمع الإنساني بجسم بشري يصح أن نشبه الشاعر بالجهاز العصبي لهذا الجسم المعنوي الحي . وأكثر الشعراء من هذه الطبقة أى إنهم شعراء قومهم وزمانهم .

أما الشاعر الكبير شاعر العالم وكل زمان فهو قلب العالم وعقله . فمن رقت شعره هام كما يقال على وجهه أو بالحرى عام على وجه الأشياء فيتلهى بلطف أشكالها الظاهرة . ومن اشتدت شعره غاص في قعر البحار فبجاءنا بشئ من لؤلؤها ومرجانها . ومن دقت شعره غمضت معانيه فشق في الظلمات حتى ينتهي عند أنوار هي من النفس والفكر بمكان . لكل حقيقة شعاع أسود خفي . والشاعر الصميم من تمشى في ظلال الحقيقة فتتبع أشعتها حتى النهاية فيكشف حقائق أخرى هي من حقائق الحياة كالنور من الشمس . ولا أظن أن هذه المزايا كلها اجتمعت لشاعر واحد من شعراء العرب .

قل ما رق من الشعور للمتنبي وندر ما دق . أجل قد يتعمد أبو الطيب الغموض فيجئنا بأماز باردة . وفي شعر أبي العلاء لا نسمع للقباب صوتاً إلا ما كان تكلفاً واجتهاداً . وشعر الفارض غابة ملطمة فيها غرائس حاملات شموعاً ضئيلة تركزض أمامنا لتهدينا إلى جنات النعيم . ولكن الشموع تنطفئ في وسط الغاب والغرائس يتشدن ويختفين في الظلمات . وهذا أجمل ما جاء في الشعر من وصف أسرار الحب وألوهية الأسرار . أما هذه المزايا الثلاث التي تقاسمها ثلاثة من شعرائنا فتجتمع كلها لشاعر اليونان هو ميررس ولشاعر الإنكليز شكسبير .

الثورة الفرنسية (*)

لو قصد المؤرخ أن يطالع كل ما كتب عن الثورة الفرنسية في اللغتين الفرنسية والإنكليزية لكانت له نصيب من المطالعة . بل إنه يموت دون أن يتعمق هذا العمل الخطير غير المفيد، وقد انقسم مؤرخو الثورة إلى قسمين فمنهم من تحرى سرد الحوادث دون تحيز وتحيز، ومنهم من ألقى بكل حادثة نفاً من فلسفته السياسية الخصومية فنجد بجزب ونصر آخر وكان إما ملكياً أو جمهورياً . أما كارليل الكاتب الإنكليزي الشهير فقد حاد عن الخطتين في كتابه المسمى « تاريخ الثورة الفرنسية » فهو لا يطرئ الجمهوريين كهيوغو ولا يندد بهم كتيارس ولا يتحامل على الملكية بانتقاده أكثر مما لو كانت حكومة جمهورية . بل أراد في تاريخه هذا أن يكون خالي الغرض غير متحيز لحزب من الأحزاب، ولكن نيته هذه الحميدة أوقعت في الفتور الذي لا يسلم فيه صاحبه من عدم الاكتراث والشك، ومن كلف نفسه قراءة شيء من تأليف كارليل العديدة يبان له بعد قليل من التفكير أن الرجل عصبي المزاج أسير السويداء والتخمة وقد كان مصاباً بداء آخر أهم من الاثنيين لا فائدة من ذكره في هذا الصدد، وأن نتيجة هذه العوارض الخبيثة تتجلى دائماً في كتاباته في شكل من التهكم فظيع، والكتاب الذي نحن بصدده الآن مفعم بمثل هذا الازدراء والسخرية . ومعلوم عند الناقد أن هذا الأسلوب لا يليق في سرد التاريخ فهو كثيراً ما يشوش المعنى الحقيقي ويجعل القصة البسيطة متشعبة متلونة غامضة لا يستطيع القارئ فهمها دون أن يجرداها من ثوبها المزخرف الكثير الألوان .

ليس من العدل إذاً أن يدعى هذا التأليف تاريخاً فهو خالٍ من الاعتقاد والرأى في الحوادث التي يسبرها، ومفعم بوساوس الفيلسوف العديدة التي ترونا في بقية مؤلفاته وتزعجنا في كتاب دعاه تاريخاً .

(*) مقالة في انتقاد تاريخ الثورة الفرنسية تأليف توماس كارليل . من اختيار المؤلف .

كتاب يفتقر إلى روح جدية لترفعه من طبقة الخلقيات إلى طبقة العقليات . ولا نقدر أن ندعو الكتاب رواية، لأن فصوله غير متصلة بعضها ببعض ، إذ نقرأ كل فصل بذاته ولا تتولد فينا رغبة معرفة السابق واللاحق . فالكتاب إذاً مجموع مقالات متفرقة في حوادث الثورة الإفريقية ورجالها مسطرة على قرطاس الفتور والشك بيراعة التهكم والازدراء . ولا رأى خصوصى له في تلك الحوادث وأولئك الزعماء ، سوى أنه ينصر تارة الكلل وطوراً يقاوم الكلل وهذه هي المزية التي خدعت الناقدين في زمن كارليل فأنزلوا كتابه هذا منزلة التاريخ في الوقت الذي يجب أن يعد في كتب الخلقيات والوصف . كيف لا ومزاج المؤلف العصبي ظاهر في كل صفحة من الكتاب فهو يقيس كل حادثة ويحكم على كل فرد له علاقة في هذه الفتنة الهائلة بمقتضى هذا المزاج المركب من السوبداء والتخمة والتهكم .

ولسنا من الذين ينكرون على الكاتب حق التهكم في الأحياء ، إذ أننا نعتقد بصلاحيه هذا الأسلوب ونعده من الظرائف الجدلية الفعالة التي يقاوم بها الكاتب كل سخيف سقيم . أما تهكم كارليل فحاداً إذا خف وفظ إذا اشتد . وبينما نحن نطالع هذا الكتاب لم نتمكن أن أعدنا الفكرة إلى ما كنا نطالعه من نثقات فولتير^(١) فإننا نرى بين مؤلفين نابغتين الواحد منهما لاتبني والآخر سكسوني شبيهاً عظيماً من حيث أسلوب الكتابة السخرى الذي استخدماه في مقاتلة الفساد والظلم والخرافة . ولكن أين تهكم الإنكليزي الكالح الجاف من تهكم الإفرنسي الوضاح المنير ، فهذا شبيه ببركان وذلك بمرض عضال مزمن . هذا يهلك ما يلقاه عاجلاً وذلك يدخل جسم الفساد والخرافة فيضعفه ويلاشبهه تدريجاً . فضلاً عن أن تهكم كارليل خال من الذكاء الذي يزين تهكم فولتير ؛ كأن كارليل يرعد إذا غضب ويمطر ، وأما فولتير فكان يبتسم ابتسامته المشهورة ويسير بهدوء إلى غايته المطلوبة .

لنعد الآن إلى الكتاب الذي نحن بصدده . أراد المؤلف ألا يتحيز في تاريخه وأن يكون مع الحق أيها وجد سواء كان في جانب زعماء الثورة أو حول

(١) فولتير : كاتب وفيلسوف فرنسي من رجال القرن الثامن عشر .

عرش الحكومة القديمة . ولكن رغبته هذه أدت به إلى الفتور وعدم الاكتراث ، والحق يقال : إن من لا يكثرث لحادثة ما لا يستطيع أن يكتب عنها بدقة وإصانة وإخلاص . وكارليل يبحث عن أكبر حادثة في العالم كما تبحث صحف الأخبار عن جريمة بيتية أوحادثة خصوصية يزول أثرها بعد أن يقرأ خبرها . فهو أبدأيفتش عن الحوادث الطفيفة التي كان الأحرى بها أن تدون في الروايات الغرامية ويستنتج منها نتائج عمومية فاسدة ويصور من هذه صوراً خيالية نظيفة يسأم هو منها في النهاية ويرفع يديه إلى السماء صارخاً : « أممکن أن تخلق ربى مثل هذا الشعب » .

وهل دعوة الإفرنسيس يا ترى خالية من الحقيقة وهل الثورة بلداتها نهضة فاسدة مضللة . وكيف يتملص الكاتب الفاتر المشكك من لوم الناس الذين حاربوا الثورة أو نصروها وبعض بنهم وأحفادهم لم يزالوا حتى يومنا هذا يقاومون نتائجها وبعضهم ينصرونها . فلو كانت فاسدة على الإطلاق لاحت آثارها بعد مئة سنة من الزمان . نحن من الذين قالوا بعدم الاكتراث في بعض المسائل الدينية التي لا تولد إلا النزاع والشقاق ، ولكن الوقت لم يحن لنبلد الحماسة السياسية والغيرة القومية فالمرء الذي لا يكثرث لأمر حكومته يعد خاملاً ، والكاتب الذي لا يجد خيراً في أى نوع من الحكومات يعد فوضوياً .

إن الحقيقة التي فصلها عن أخواتها — عن أسبابها ونتائجها — وندونها معتزلة مستقلة كثيراً ما تغش المؤلف وتضر بالغاية الأصلية التي ينبغي أن تظل نصب عينيه . أما الثورة في رأى كارليل فلا سابق ولا لاحق لها . هي فلتة اجتماعية لا سبب لها ولا نتيجة ، هي ضربة من ضربات الله هي مصيبة من مصائب الزمان ، هي بنت الاتفاق الذي نشأت عنه وماتت فيه ، هي حادثة معتزلة عن حياة البشر السابقة وعن مستقبلهم . إن عدداً من الناس ينتسبون إلى بلاد تدعى فرنسا قاموا في وقت من الزمن فهاجوا وماجوا وحدث بينهم شغب عظيم وقتال من أجل قوانين ونظامات سياسية جمعوها فلقبوها بالقانون الأساسى . ومن ثم أهلك بعضهم بعضاً وخنموا القانون بدمائهم وعادت الأشياء إلى عالم النسيان ، إلى ظلمات الزوال .

هذا كل ما يراه كارليل في الثورة الإفريقية فهو لا يكلف نفسه النظر في البواعث التي من أجلها سفكت دماء الألوف من الناس . ومع ذلك هو يحاول إظهار الفاسد من الصحيح فيها . وكيف يستطيع الكاتب أن يحكم على أحوال أمة في عصر لم يكن هو منه بعد أن أهمل التنقيب في تاريخ الأمة الماضي وفي أخلاق الشعب وأحواله السياسية الزراعية والتجارية .

قد أوجب الأقدمون على المؤرخين إبداء الحكم في كل قضية يدونونها وأقاموهم مقام القضاة وبعد أن يدون المؤرخ الحوادث بدقة وإخلاص يمحس الصحيح من الفاسد فيها ويستنتج من ذلك نتيجة تسوغ له وض قاعدة أدبية فيها نور وهدى للأجيال المقبلة . وقد قام كارليل ببعض هذا الواجب في تدوين الحوادث غير أنه أغفل أمراً جوهرياً هو ذكر السبب الرئيسي الذي نشأت عنه الثورة فهو لا يرى فيها عملاً واحداً يستحق الشكر إذا ذكر ، ولكن حادثة واحدة نظيفة لا تقدر في نهضة عمومية خطيرة وإن تعددت هذه الحوادث المرعبة ، فالنظر إليها وإلى أسبابها الأولية معاً لأمر واجب على المؤرخ .

إن صلب المسيح بالنظر إلى مصلحة الشعب الإسرائيلي عادل في الظاهر ، وبالنسبة إلى البشرية هو جائر فظيع أما الحادث هذا رحله فلا معنى له ولا أهمية . وإن من يقرأ سجلات الحكومة الإفريقية ومعلومات السياسيين والكتاب الذين شاهدوا الحوادث وكانت لهم يد فيها يبالغ لا شك في التعنيف والتنديد بما يدعى « دور الهول » إذا أغفل الغاية الرئيسية التي بسببها ومن أجلها تأسس .

ومن كان نظير كارليل سريع التأثر صعب المرام حاد المزاج يحكم على الحوادث هذه بالنسبة إلى انفعالات نفسه لا بالنسبة إلى الظروف التي نشأت عنها ، ولذلك لا نرى في كتابه إلا مجموعة قصائد مدح وفخر وهجو ورتاء ، قلت مجموعة قصائد لأن في أسلوب نثره جمال الشعر وزخرفة فهو يسير منشدأ وراء عربة المنتصرين وباكيًا في موكب المهزومين . يرفع اليوم قوس نصر للقوة المادية ، ويبني في الغد مذبحاً للشفقة والحنان . وبين هذه المتناقضات يصبح القارئ حائرًا تائهاً . كيف لا وهو يتوقع من المؤرخ أكثر مما يتوقعه من

الشاعر . نريد أن نعرف كيف تخفض آلام البشر وشقاؤهم لا كيف أن نندب هذا الشقاء ونرثيه .

إن في حياة الأجيال الماضية أمثلة للأجيال الحاضرة والمقبلة والمؤرخ الذى لا يظهر هذه الأمثلة فيلهو عنها في وصف البؤس والشقاء لا يخفض شقاءنا ولا يعلمنا شيئاً . إن في أعمالنا اليوم أمثلة ثمينة لأبناء الغد هى الكنز الوحيد الدائم الذى يرثه عنا الخلف بواسطة التاريخ . ومن واجبات المؤرخ المحافظة على هذا الكنز الثمين بعد الوقوف عليه وإذا كان ضائعاً بين أنقاض الثورات والحروب أو مختفياً في بحار الأهواء والتعصب فعليه أن يفتش عنه بصبر وعناء وينيره في الناس مصباح هدى وسلام .

إن الحلقة التى تصل الماضى بالمستقبل هى حلقة الترقى الدائم مما كان إلى ما سيكون، والحوادث التى تتخللها هى حلقات بعضها يشترك ببعض وليست متفرقة متشتتة كما يزعم كارليل والمؤرخ الذى يكمل سلسلة الترقى أو بالحرى يزيد في توثيقها يخلم الناس خلمة حقيقية . ولكن كارليل لا يعتقد بحياة جامعة شاملة . حياة روحية دائمة يتصل آخرها بأولها* بل هو شديد الاعتقاد بالتفرد والأفراد وقد قال مراراً إن تاريخ العالم هو تاريخ عظماء الناس . على أن الفرد إنما هو صوت واحد ينطق باسم ملايين من الناس الصامتين؛ فالرجل العظيم إنما هو عظيم بشعبه لا بنفسه هو يستمد معظم قوته مما يحيط به من الأشياء والظروف والرجال هو خاضع كأصغر الناس لناموس الترقى الدائم الأزلئ بل هو صنيعه هذا الناموس وخادمه المخلص علم ذلك أو جهله، فلو ولد نابليون في بلاد الصين مثلاً وعاش فيها لما كنا نعرفه الآن، ورب قائل لو ولد نابليون هناك هل كانت حصلت فرنسا على المجد الذى أكسبها إياه ؟ أجيب بالإيجاب إذ لو لم يولد نابليون فيها لنشأ غيره وهذا ما يجعلنى شديد التمسك بما يدعى ناموس الترقى الدائم الذى يقضى بوجود رجل عظيم كل فترة من الزمن لتأييد هذا الناموس وتعزيزه .

إن القنوط والشك واليأس والقنوط كلها طبائع تظهر في كل صفحة من هذا التاريخ وفي أسلوب إنشائه الجميل الفخيم، وقد قلت إن كارليل هو أشبه بالشاعر مما هو بالمؤرخ والشاعر لا يكون أستاذاً في الاقتصاد السياسي ولا فيلسوفاً في العمران فهو إذا قرأ سجلات الحكومة الفرنسية ومعلومات من شاهدوا الثورة يشور نائره الشعري فيحصل فيه انفجار أشبه بالبركان ويدهمنا بحمم تحرق ولا تنير. فتسود منها آفاق البصيرة وتظهر أشباح أبطال الثورة التي يصفها وهي تنهادى في الظلمة غير المتناهية. ولكن ماهي غاية هذه الأشباح وما هو غرضها ولماذا أشغلت فكر كارليل فألف فيها مجلدين ضخمين؟ لأنها كانت تندب وتنوح عبثاً وتقاتل وتحارب باطلاً وتصيح وتنادى دون غاية ودون مرمى؟ ماذا فعلت هذه الأشباح؟ أكلها الزمان فتلاشت من ذاكرة الإنسان. بلعتها الظلمات فاحت من لوح الحياة. هذا جواب كارليل وزيدة فلسفته المختبأة في أكام الفصاحة وأشواك البيان، وبناء على ذلك لا يحق لتأليفه أن يدعى تاريخاً. وإنما هو ملحق تصويري لتاريخ الثورة الفرنسية وإن فصوله لأشبه بصور رسمتها يد ماهرة. صور تساعدنا على الدخول إلى تاريخ الثورة الجدى ولكن لا تنبئنا به كثيراً فهي من هذا القبيل أشبه بالصور التي تزين بها الروايات التاريخية، تحملنا إلى بعض ما يقصده الكاتب ولا تكشف لنا الستار عن القصة بكاملها.

ومن جهة فلسفية يمكننا أن نقول إن المؤرخين اثنان: الأول يعتقد بالشوء والارتقاء الاجتماعي بالترق الدائم بالصعود المستمر. والثاني لا يعتقد بشيء من هذا. فلسفة ذلك في العمران شبيهة بخط مستقيم عمودي، وفلسفة هذا بالدائرة، صعود البشر في رأى الأول دائم مستمر وفي رأى الثاني محدود تصل الشعوب فيه إلى نقطة لا يستطيعون أن يتجاوزوها فيهبطون عائدين إلى الهوة التي خرجوا منها. وهم في هذا يشبهون الحية التي تأكل ذنَبها. ومثل هذا المؤرخ الذي لا يكثر بالأشياء ولا يحترم روح التاريخ ولا ينظر إلى ما وراء الحوادث يجرى على الفساد والظلم سلاح التهكم والازدراء ولا يفوز بغير الهدم والتدمير. ومثال ذلك أن كارليل يشغل فكرته وقرينته غالباً بطفيف الحوادث وتافهها

شأن القصصى أو الكاتب الأخلاقى (*) فضلا عن أنه لا يعتقد فى تاريخه هذا بغير الزوال الدائم .

كل بيت للهدم ما تببنى الور فاء والسيد الرفيع العماد
والليب اللبيب من ليس يغير بكون مصيره للفساد^(١)

والمؤرخ الدهرى يختلف عن الفيلسوف الدهرى فى أن هذا يعتقد على الأقل بأزلية المادة وخاودها ، وذلك لا يعتقد بخلود شىء . إنما حياة الأشياء والمخلوقات إلى أجل مسمى . بل هى خيال زائل يظن ذاته حقيقة ثابتة دائمة . فى مثل هذه الأقاويل يبرهن كارليل على أن الثورة الإفرنسية لا تؤثر أبداً فى تاريخ الشعوب وال عمران ولن تؤثر حتى فى أحوال أوربا السياسية والاجتماعية .

وفى الفصل الثانى من الكتاب الأول يرفع الستار حتى النهاية عن فلسفته الاجتماعية الدهرية ومن يقرأه مفكراً تنجلي له النتائج التى استخلصناها منه ، وهى أن تعظيم الصغائر يلد متى كان النافع فى فقائيعها كاتب عظيم ككارليل ، ولكن الحفول فى الصغائر يبعدنا عن الجوهر الحقيقى . وأن الفكر الروحى الداخلى زائل لا أزل هو ولا خالد ، بل هو يتغير ويتحول ويتلاشى كالمادة صحيحاً كان أو فاسداً . وأن النهضات الاجتماعية السياسية تظهر فجأة واتفاقاً لا بعد أن تنضج فى خفايا الزمان . وأن الفلاسفة مخطئون على الإطلاق فى مبادئهم الاقتصادية وفلسفتهم الاجتماعية . وفى بقية الفصول دليل واضح على كل هذا . وفيما كتبه عن ميرابو بالأخص وعن ليلة رابع آب (أغسطس) دليل أنصع وأوضح ، ومعلوم أن مجلس النواب ألغى فى تلك الليلة الشهيرة فى مدة ساعتين من الزمن نصف شرايع الحكومة القديمة وقوانينها . وإذا أراد القارى أن يطلع على مثال جلى من تهكمه اللفظ وانتقاده العنيف الشديد فليقرأ الفصول التى يصف فيها فرار الملك والمخافة الوطنية فى شأن دى مار ، والمشاعب التى نجمت عن قلة الخنطة واحتكارها . وكم مرة ردد فى كتابه عن مجلس الأمة الذى نسل

(٥) الكتاب الأول الفصل الثانى من تاريخ الثورة .

(١) البيتان لأبى العلاء الممرى .

فرنسا من الهوة التي كادت تبتلعها قوله إن « قد اجتمع أعضاء المجلس ليصلحوا قواعد الأفعال الشاذة » .

قد لا يحترم كارليل إلا القوة المادية وكثيراً يكبر نزوات الإنسان وأهواءه وبعدها . فهو لا يرى في نهضة الإفرنسيس على أرباب الظلم والظلام سوى خمسة وعشرين مليون معدة فارغة وخمسة وعشرين مليوناً من الألسنة الملتهبة حماساً الملتوية جنوناً في عالم من الفساد مضطرب مدغم . فالخبز في مذهب كارليل هو سبب الثورة ونتيجتها هو الأول وهو الآخر . وأما المؤرخ الذي يعتقد بالصعود المتواصل بالترقى الدائم فهو لا شك يرى أن ليس بالخبز فقط يحيا الإنسان .

إن بين الكمالات النظرية والاختلال الحقيقي في حياتنا الاجتماعية علاقة خفية تكاد لا تنظر بالعين المجردة ولا تعجلى دقائق الحكمة فيها إلا لمن خصتهم الطبيعة بشيء من البصيرة والذكاء وبنفس صافية شفافة صحيحة تنعكس فيها الأشياء انعكاساً تاماً جليلاً صحيحاً . ولا شك أن بين ما هو كائن في تصوراتنا وما هو حادث في حياتنا فرقاً ظاهراً ومع ذلك فإن هذا إلا انعكاس ضعيف مختل لذلك . كأن العقل البشرى اليوم أشبه بمرآة مكسرة لا تنعكس فيها الأشياء كما ينبغي . وإلا يجوز لنا مع ذلك أن ننفض في الحوادث روح الكمالات النفسية فنبتى مدفونة فيها إلى أن ينشرها الزمان فتظهر ولو بعد ألوف من السنين بمظهر من الحياة سام نقي جميل « ألا نستطيع أن نمزج القليل مما هو كائن في تصوراتنا بما هو كائن حادث في حياتنا . ألا نستطيع بكلمة أوضح أن نزرع فيما نقص وفسد من الأعمال بدور ما تعالى من الآمال . لتنت وتثور ولو في جيل بعيد بل آت من الأجيال .

هذه سؤالات يضحك منها كارليل الساخر بآمال الناس المستخف بتشوقات الروح الكمالية . فهو لا يمنحنا شيئاً ولا يدعونا إلى شيء ولا يؤملنا بشيء . القوة الحيوية المادية التي تظهر في عظام الرجال وأبطال التاريخ إنما هذه في مذهبه كل شيء .

أنا أكلك وآخر يأكلنى . براغو ! والأخير من البشر فريسة من يكون ؟
 ولا نظن أن المؤلف حاول أن يضع تعليماً جديداً في الثورة الإفريقية
 فالمؤرخون كما سبق القول ينصرون الثورة أو يقاومونها، أما كارليل فشاء أن ينصرها
 ويقاومها معاً . ولكن هى التخمّة وعرض بل مرض آخر ولداً فيه السويداء
 فأصيب بالفتور والشك وأصبح لا معها ولا عليها . ولا نظنه ولو شاء يستطيع
 أن يؤسس حزباً ثالثاً غير متحيز لأنه فى كل ما كتبه عن الثورة لم
 يبد قط رأياً وضعيةً ثابتاً يتخذه الحزب دستوراً لأعماله بل كان كرشة فى مهب
 الريح طوع تأثيراته وأسير وساوسه .

هل الملكية لازمة نافعة للناس . كلا . إنها مبنية على أساس فاسد . هل
 الجمهورية أصلح منها . كلا . فهى قد نشأت من الظلمة وشيدت على جثث
 الملايين من العباد . علينا إذأً بالقوضى هذه هى نتيجة فلسفة غير المتحيزين من
 المؤرخين .

وقد علمنا التاريخ حقيقة نود لو لم تكن وهى أن من أراد تأسيس حزب
 أو وضع تعليم أو إنشاء ديانة ينبغى له أن ينظر إلى وجه واحد من المسألة فقط .
 إذا شاء أن يكون صريحاً فى رأيه حازماً فى قوله ثابتاً فى عقيدته، وبكلمة أخرى
 إذا شاء أن يكون مؤسساً لحزب أو تعليم أو دين ما عليه أن يكون متحزباً
 متعصباً مأخوذاً بدعوته مهما كانت . عليه أن يكون أعمى أصم فى ما سوى ذلك .
 فالنقى والشك والتردد وعدم الاكثراث والفتور هذه لا تؤسس ممالك وأحزاباً
 وديانات . وهذه كلها من مزايا كارليل المشهورة . فقد أحب ألا يكون متعصباً
 لا مع الثورة ولا لها فجاءنا بتعصب جديد خصوصى لا يضر بالحقيقة الجوهرية
 ولا ينفعها وقد تلذ لمن تتوق نفسه إلى الحديد من الأشياء والآراء . وربما أنه
 توسع فى الصغائر والتوافه التى تتعلق فى الثورة ولذ له سردها بل نظمها فى نثره
 الفخيم فهو أشبه بنور تضعضعت أشعته المرسلّة فى كل الجهات ولم تعدّها إلى
 ما وراءها من الجوهريات . وأنه لو صوب نور مصباحه إلى غرض واحد فى
 جهة واحدة لأرانا فى الزوايا شيئاً من الحقيقة الثابتة الدائمة . لو فعل ذلك لفاض

بوضع تعليم جديد أو تأسيس حزب ثالث ينظر في شؤون الثورة نظر الغريب عن هذه الأرض وبقيس منافعها وأضرارها بغير مقاييس هذا العالم .

أما التنديد برجال الثورة والاستياء من النهضة بجملتها والنفور من هولها والفرار من نارها المحرقة المنيرة ، فهذه ذنوب لا تغتفر لادورخ إذا اقترفها . فالطفل يولد في الألم والعذاب والجمهوريات تنشأ في الثورات والحروب . الأم تتألم ساعة الولادة وكذلك الأمة . يموت الإنسان والعذاب ملازمه ويولد الطفل والألم حليفه . وكذلك الحكومات بأنواعها والأمم . فلا تموت حكومة بسلام ولا تنشأ حكومة بسلام .

ولا بأس في الختام من قصة صغيرة أوردتها ، فقد ذكرتني بها مطالعة هذا الكتاب الذي أود أن يطالعه كل من يحسن اللغة الإنكليزية من قرأني . ورب قائل : ولم تدعونا إلى مطالعته بعد أن تحققت فساده وبان ذلك الضرر الذي ينجم عن اقتباس الأفكار التي جاءت فيه ؟ أريد أن يقرأه كل من كلف نفسه قراءة هذا البحث ليستطيع أن يقابل بين الاثنين . لا أريد أن يرثني أحد رأني دون أن يشغل قليلاً فكره . لنعد الآن إلى القصة .

أراد أحد الملوك الأقدمين المولعين بالعلم أن يطالع على تاريخ الأمم فطلب أحد وزرائه وأمره بتأليف أو جمع تاريخ عام فذهب الوزير وغاب سنين ، ثم عاد إلى الملك ومعه عدد من الجمال محملة كتباً . فوقف أمام ملكه وقال : « ها هو التاريخ الذي تطلبه » ، ولكن الملك وقد هالته أحمال الجمال أمر الوزير أن يختصر التاريخ فغاب هذا ثانية وعاد بعد سنين ومعه جمل واحد فقط يحمل التاريخ المختصر . أما الملك فكان قد ضعف بصره ووهنت قواه فأمر الوزير أن يختصر أيضاً فغاب الوزير للمرة الثالثة وعاد فرأى مليكه يتقلب على فراش الموت فلما رآه الملك قال : « آه ثم أواه ساموت قبل أن أطلع على تاريخ الأمم » فأجابه الوزير معزياً : « لا تقل ذلك يا مولاي فقد أحضرت لك مجموعة صغيرة تنبئك عن كل أعمالهم باختصار غريب وها هي : » ثم

أخرج الوزير من جيبه ورقة صغيرة وقرأ بصوت مرتفع : « هاك يا ملك الزمان تاريخ شعوب الأرض مختصراً : فإنهم تنفسوا فتنافسوا فعمقوا فماتوا » .

وتاريخ كارليل المقسوم إلى عشرين كتاباً وكل كتاب مقسوم إلى فصول لم يفدنا عن الثورة الإفرنسية أكثر مما أفاد الوزير مليكه عن تاريخ شعوب الأرض ، فالكلمات الأربع التي تؤولف تاريخ الوزير تكفى لتأليف مثل هذا التاريخ دون أن يفوتنا منه شيء كثير . ولو شاء كارليل أن يختصر لقال مع الوزير عن الإفرنسيس « قد تنفسوا فتنافسوا فعمقوا فماتوا » ، ولكن في الأمة الإفرنسية ما لا يموت - في الأمة الإفرنسية من نتائج الثورة العظيمة ما تبقى آثاره بادية حية نامية في ترقى الأمم والناس .

ومن شعره :

النجوى

هي صلاته التي كان يناجي بها ربه بخشوع
ويجهر في بعضها الآخر بصوت أجش مجلجل كأنما
يحاكى فيه صوت العزة الإلهية .
والنجوى مثال من شعره المنشور وقد ظهرت في
أول الجزء الرابع من الرمانيات طبع بيروت ١٩٢٤ .

ياذا الجلال الأزلى ، ألعفى بشيء من جلالك .
ياذا النور الدائم ، امددنى بقبس من نورك .
ياذا القوة غير المتناهية ، ابعث منها في قواى .

• • •

إنما أنا مبدأ الحياة الأزلية ، وعين الحب والقوة ،
وإني حى فيك ، عليم بتجاوبك .

• • •

أنت الحياة بأجمعها ، أولاً وآخراً ، وإني لأحيا بك .
 إنما أنا مصدر الإدراك البشرى ،
 وسأزيدك إدراكاً بأنك جزءٌ منى .

• • •

ساعدنى اللهم لأجمع قواى الروحية ، والعقلية ،
 والجنسية ، فى سبيل الحق والحب والحكمة .

إنى أيها الإنسان مصيخ إليك ، مطلق يديك ، منعم عليك .

• • •

يا أيها ينبوع السمردى ،

المنبعثة منه أنوار الحب ، المتدفقة منه مياه الحياة والعافية ،

إنى أفتح لك عقلى وقلبى ، وأبسط أمامك روحى ، فلا تحرمنى فيض
 مكارمك ، ولا تبعدنى عن يتابعك .

إن يتابعى لنى النجوم ، وفيما يربط النجوم بعضها ببعض . وفيما
 ينشأ عن ذا الارتباط من قوة وعافية . إن يتابعى لنى الحقول ، وفيما ينشأ
 فيها من الأزهار . وفيما يبعث من الأزهار أريج الحب والجمال .
 وهى كلها أمام عينيك ، وطوع يديك يد العقل الكشاف ، ويد الروح
 الخالدة .

• • •

إنك إلهى ، ولا إله لى إلاّك .

إنى نبض الحياة فىك ، وروح الحب فىك ، ونور الحكمة فىك كن عليها
 أميناً ، فهى الألوهية ديناً وبقيناً .

مختارة

من « التطرف والإصلاح » ، طبع سنة ١٩٢٨

« التطرف والإصلاح » عنوان لبحث اجتماعي
يدور حول العدل والمساواة بين الناس . وفي المختارة
التالية يطالع القارئ نظرية من نظريات الكاتب في
الموضوع .

إن الجهل والخوف توعمان أهمهما العبودية وأبوهما الظلم . وإن عقلية الأسرة
كلها لعقلية العبيد . وما أدراك ماعقلية العبيد . إنها لتبدو في السيد وفي
المسود - في الوزير وفي الحقير - في المؤمن اللابص العمامة أو البرنيطة ،
وفي رئيسه الرافل بالدمقس أو بالأرجوان : - أنا سيدك ، وهذا نيرى على
رقتك . ثم يقول لمن هو أرفع منه : - أنت سيدى ، وهذا نيرك على رقتى .
سبحان من جعل النير رمز المساواة .

ومرحباً بمن جاء يكسّر الأنيار ، ويحور العبيد !

* * *

إن العلم والحكمة والحريّة هم الرعاة الحقيقيون . هم الذين يعرفون الموارد
العذبة ، والمناجع الخصبية الطيبة ، فيدعون ولا يكروهون . أجل ، إنهم ليدعون
بالحسنى ولا يكروهون أحداً .

ولكن الناس عبيد ما ألفوا يسرون تابعين ، مسوقين فيقتفون الآثار البادية
للعين أو لحاسة الشم ، وإن أفضت بهم إلى القفار المهلكة أو إلى البوادي التي
يكثُر فيها السراب فإن لم يقم فيهم من يحمل العصا ويصبح صيحة المنقذ ،
فهم لا يسمعون ولا يزدجرون .

* * *

هم الناس - يقدسون الجهل ، ويبنون معابد للخوف ، ويشعلون أمام الظلم الشموع ، ويقدمون للضلال القرابين ، ويجاسون بعد ذلك كالقضاة يدين بعضهم بعضاً، ثم يمشون في الأسواق على الاتنين، وقد حججوا الأذئاب بالجوخ والحريير .

• • •

لو كانت هذه الإنسانية مرنة في معقولها ومفهومها لآثرت فيها الحكمة والاعتدال تأثيراً حسناً سريعاً . أما وهي متزاحمة متراسة ، بطيئة الحركة ، كثيفة الذهن والإحساس ، مثقلة بتقاليد وخرافات أقدم من أور الكلدانيين ، فلا بد من استخدام الألغام والمدافع في استنهاضها واستحثائها ، لا بد من الحماسة تهزها ، ومن الأهواء الإصلاحية تهيج أعصابها ، ومن خمر الحرية يشعل في عروقها نار الهوس والمغامرة .

لا بد من التطرف بغضبها ، فيستفزها ، فتنشط في الأقل إلى محاربة المصلحين وتستفيد من مجرد الحركة والمقاومة .

وإنك لتشاهد التطرف حتى في الكائنات ، وفي نواميس الطبيعة فما معنى الزلازل إذن ، والبراكين ، والسيول ، والطوفان ، والأمراض السارية ؟ وإن في تاريخ الإنسان أخوات لها نسميها الثورات والحروب .

إن الثورة مطهر الأمة وقد ثارت على ما فيها من الظلم والفساد ، إن الثورة مطهر الإنسان وقد ثار على ما في نفسه من قديم التقاليد والخرافات . ومن لا يثور على ما في نفسه ، لا ينجو من العبودية ، ولا حتى له أن يشكو العبودية .

ومن مقالاته في التاريخ

مختارات

من كتاب « النكبات »

(النكبات) ١٩٢٨ وهو خلاصة تاريخ سورية من العهد الأول بعد الطوفان إلى العهد الحال ويقع في ١١٢ صفحة من قيامس « ملوك العرب » . وقد أراد المؤلف أن يصرف به أنظار أهل هذه البلاد عن التنغي الفارغ بالماضي . وأن يوجههم إلى الاهتمام الجدي بمشاكل الحاضر والتطلع الداعي إلى آمال المستقبل .

إخواني أبناء هذه البلاد ، سهلها وجبلها وساحلها : كثيراً ما نقرأ ونسمع أن تاريخنا مجيد ، وكثيراً ما نتغنى بمجد الأجداد ، وبمفاخر الأجداد . فتعالوا نعيد النظر في أهمّ ما في التاريخ ، تعالوا نزور الماضي ألحانا عن كل مكرومة . تعالوا نزور الماضي فنقصر إذ ذاك من ذكر الأجداد .

ومن هم الأجداد ، أجدادي وأجدادكم ؟
القوى منهم كان ظالماً ، والضعيف كان مستعبداً .
أقرأوا التاريخ متزهين عن الأغراض مجردين من الأهواء .
أقرأوا التاريخ لتدركوا اللب فيه ، فتنسوا إذ ذاك قريضة وقوافيه .
أقرأوا التاريخ متفهمين روحه وروح أبطاله ، فتودون إذ ذاك أن تنسوا

الماضي .

انسوا الماضي ، انسوه غير آسفين .

(مراقبة)

ظُفِر الميت خيال لا يفيد ، وما حك جلدك مثل ظفرك .

إذن ، تعالوا نتفاهم ، فتآلف ، فتتضامن ، فتتحد في سبيل الوطن بل في سبيل الحياة .

تعالوا نكتب صفحة جديدة في تاريخ هذه البلاد .

الشباب المجهول

في هذه النبذة من « تاريخ نجد الحديث وملحقاته » يصف الكاتب دوراً من حياة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود . وذلك حين كان ابن سعود مجهولاً في الكويت قبل أن يسترد ملكه من آل الرشيد .

ولد في الرياض عاصمة ملك أجداده ، فرأى عمومته يتنازعون الملك ويتحاربون ، ورأى العدو على أبواب العاصمة وهو يطمع بالاستيلاء على نجد أجمع ، ورأى أباه يحارب في الواقعة الأخيرة ويستسلم إلى الله ، ثم سمعه وهو جالس إلى جنبه في الحساء يرفض شروط الدولة العلية ، فسُدَّت أمامه الأبواب كلها إلا الباب إلى الصحراء ، فلجأ إلى خيام الشعر وهو مثل أصحابها لا يملك قرأً من الأرض ، وليس له غير تلك الثقة الوطيدة العالية ، الثقة بالله ، التي هي كثر الأعرابي الأكبر .

ثم سكن الأب الكويت ، وصار الصبي شاباً ، فكانت الذكرى الأليمة رفيقة أفكاره وسميرة أحلامه . قرأ شيئاً من العلوم هناك ، وهو يفكر في الملك المفقود . جلس أمام البحر وهو لا يدري إذا ركبته إلى أين تحمله الأقدار ، ثم نظر إلى البادية وهو يهجس بالملك المفقود ، عاشر الأمراء والعلماء ، وجلس ساكناً متأدباً في مجلس الشيوخ ، وهو يحلم بالملك المفقود ؛ فتح الكتاب

ثم ألقاه جانباً ، وهو يرمق السيف بنظرة كلها شوق وأمل .

عاش مجهولاً في الكويت ، مجهولاً إلا في الاسم والنسب ، وفيما يبدو للعين المجردة . فقد كان الناس يعرفون أن ذلك الشاب القوي البنية ، الطويل القامة ، البراق العين ، هو عبدالعزيز بن عبد الرحمن بن سعود ، وما كان كبار القوم فكراً وفساسة ليعرفون أكثر من ذلك . بل كانوا كلهم في ظلال سور الغيب كالأطفال . جهلوا ما كان يجمله حتى أقرب الناس إلى عبد العزيز ، حتى أبوه وأمه . جهلوا ما كان يجمله التاريخ . جهلوا ما كان يجمله الشاب المجهول نفسه ؛ جهلوا ما لم يكن يعلم به غير الله .

مغزى اللبنة

الفصل الأول من القسم الثاني من « قلب العراق »
الذي طبع سنة ١٩٣٥ وقامت حوله قيامة الأثرين
في العراق لما جاء فيه من الانتقادات حول المحافظة
على الآثار . وفي « مغزى اللبنة » وصف لمعامل الطوب
وكيف ينجز صنع الحجارة فيها .

لا يزال ببغداد من الآثار القديمة ما يعود بعضها إلى القرن الرابع للهجرة . سنعود بك ألف سنة إذن ، لريك ما نجا من صول العناصر ، وغوائل الزمان . وإنك لتعجب للرسم الطامس ، والظلل الدارس ، فضلاً عن الصرح الذي لا يزال قائماً سليماً نافعاً ، إذا ما علمت أن مواد البناء في أواسط العراق سريعة التفكك والذثور . فالباني بالطين والأجر مهما كانت مهارته ، ومهما كان من طموحه وإجادته في الهندسة والزخرف ، لا يتمكن من تشييد الصروح التي يضمن لها طول البقاء الصلدة الضخم من الحجارة ، أما اللبن فهو مثل العامل باللبن - هو من التراب ولا يلبث أن يعود ، مثل الإنسان ، إلى التراب . لاخلود في غير الجلمود .

واذكر كذلك أن لبنة بابل التي لا تزال تشهد على مهارة صانعيها وبانيها

في عهد نبوخذ نصر ، والتي لا تزال في حائط المعبد وشارع النصر ، فيما اكتشف من المدينة الكلدانية القديمة ، كما كانت يوم أخرجت من النار منذ ألى سنة ويزيد، إن تلك اللبنة أمست من التقاليد المطوية، والذكريات المنسية ، في مصانع الأجر بالكاظمية وبيغداد . فقد تطورت صناعة الأجر في العراق تطوراً سلبياً . لا أعنى بهذا أنها رجعت القهقري ، بل أعنى أنها سقطت سقوطاً مفرجاً . والبرهان على ذلك فيما نشاهد من أنواع الأجر القديم والحديث ، أو بالحري في المقارنة بين لبنة بابل ولبنة طاق كسرى وبين لبنة بغداد اليوم .

ومما يدعو للتفكير والاعتبار أن هذا التطور المعكوس دخل على شعب البلاد ، في بعض نواحي الحياة ، كما دخل على أجزه . فلا عجب إذا قال العالم الأثرى : هات اللبنة العراقية وخذ الحديث عن أهل الزمان الذي صُنعت فيه . وهاك بعض الحديث . كان البابليون مثلاً يهتمون اهتماماً عظيماً بالزراعة والرعى ، وكانت اللبنة البابلية في منتهى الجودة والمتانة ، ثم عرا الزراعة شيء من الإهمال في عهد الساسانيين ، وغدت اللبنة الفارسية دون البابلية صنعاً وإتقاناً . ثم جاء العرب ، فدخلت الزراعة - وصناعة الأجر - في دور الانحطاط .

لا نكران أن بعض الخلفاء العباسيين كانوا يعتنون بالزراعة عناية تذكر ، ويستحبون من البناء ما كان فسيحاً ، وما اتسعت في طول بقائه فسحة الأمل . ولكن اللبنة التي كانت تُصنع في زمانهم هي دون اللبنة الكُسرورية فذلاً عن البابلية .

مسكينة هذه اللبنة العراقية العصرية - هذه اللبنة النضاحة المملحة . فما كان بإمكان حتى الخلفاء العباسيين ، أولئك الخلفاء الذين بذروا أموال الدولة في بناء الجوامع والقصور ، كما بعثوها في الحروب ، ما كان بإمكانهم أن يجبروا صانع الأجر على أن يستخرج من اللبنة كل ما فيها من الملح . أو أنهم جهلوا هذا الأمر ، وما علموا أن ملح الأرض ، في صناعة الأجر على

الأقل ، هو غير ما تصفه به الأمثال . هو يُفسد ، ولا يصلح . وهذا هو السبب الأول في درس آثار بغداد المشهورة وإيحائها ، إلا القليل منها .

كان البابليون يحسنون ، ولا شك ، استخراج كل الملح من الأتربة التي يستعملونها لصنع الأجر . وهذا هو السر في دوامها سليمة أكثر من ألفي سنة . فالمح في اللبنة يجعلها عرضة لفعل العناصر ، أي نضاحة . وإنك لتراها في أبنية بغداد اليوم تنش بالماء ، فيذوب تدريجاً ما فيها من الملح ، فتبدو بنخاريبها كقطعة من الإسفنج المتحجر . وتستمر هذه الحال حتى تنفتت اللبنة ، فينداعى الجدار ، ويسقط البناء .

ولماذا لا تصنع اليوم اللبنة الشبيهة بلبنة بابل القديمة ؟ سألت هذا السؤال أحد أصحاب المصانع خارج الكاظمية ، فقال : « هذا التراب من كرم الله ، واللبنة منه ، وهي خير ما يصنع ، والحمد لله » ، قلت : « وكم هي مدة الاشتواء ؟ » ، فقال : « قدر ما يشاء الله . حينئذ سبعة أيام ، وحينئذ عشرة ، وحينئذ خمسة عشر يوماً ، وفي بعض الأحيان لا يشتوى قطعاً . سبحان الله ! » .

كانت النساء العاملات في محضر كبير في جوار الآتون يمزجن ركام التراب بالماء ؛ فقال لى وأنا أنظر إليهن وأرقب عملهن : « التراب والماء لا غير » . ثم انتبه فأدار بوجهه إلى الآتون وكل كلامه قائلاً : « النار - التراب والماء والنار . وكلها من كرم الله ، سبحانه وتعالى » .

قلما اجتمعت ، في رحلاتي كلها ، بمن هو أكثر لطفاً ، وأدمت خلقاً وأجمل تقوى وورعاً من هذا الرجل . وهو ولا شك شيعى من الكاظمية ، قلما تجد مثله في الشرق . هو رجل قديم الأيام ، قديم اللسان ، قديم العقيدة والإيمان . هو رجل من القرن العاشر ، أحد صناع الأجر في زمن العباسيين ، عاش ألف سنة فلطفته الأيام ، وورعته الليالى . ثم استأنف صناعته في ظل المآذن والقباب ، في جوار الكاظمين رضى الله عنهما .

وقد زرت خارج بغداد مصنعاً للأجر حديث البناء والأدوات ، صاحبه

إسرائيل من هذا الزمان - عصرى عمرانى ! فهو يشعل فى أتونه زيت النفط ، بالضغط البخارى ، ويصنع الأجرّ بالمكنات ، ويرسل نموذجات من التراب - مكنّ كلمته هذه بإيماءة فيها الرضى عن نفسه والفخر بها - إلى أوربة ليفحص فحصاً كيمائياً . ثم قال : « نعم ، إننا نلجأ إلى العلم ، لننتفع به . ولكن العلم لا يزيد الأرباح فى العراق » . ثم سألته سؤالاً بخصوص اللبنة البابلية ، لبنة نبوخذنصر ، وهى المثل الأعلى فى هذه الصناعة ، فقال : « كله يتوقف على التراب والملح . فى بعض الأماكن يكثر الملح فى التراب ويقل فى غيرها . لذلك نرسل النماذج منه إلى الاختصاصيين بأوربة . . . أظن أن الملح يقل فى التراب فى جوار بابل والحلة . . . لا يا سيدى لا نستطيع أن نستخرج كل ما فى التراب من الملح ، لأن ذلك يقتضى نفقات كبيرة . والناس لا يرغبون بغير الأجرّ الرخيص السعر » .

إن المسألة اقتصادية زراعية . فاللبنة لا تتحسن إلا إذا زيد بتمنها ، والزيادة بالثمن غير ممكنة إلا إذا ازدادت الثروة فى البلاد . لذلك ترى الحكومة العراقية باذلة جهدها فى تحسين الزراعة بتحسين عوامل الرى . إذ ذاك نعود إلى الزمن البابلى - إلى عهد نبوخذ نصر الزراعى - فنستغل الأرض بكل ما لدينا وبكل ما فيها ، ونثرى ونبنى البيوت التى لا تنضح لبناتها ولا تذوب ، البيوت التى تدوم أكثر مما دامت قصور الحلفاء العباسيين .

لله أولئك العباسيون ! فقد ابتغوا المجد فى الدنيا وفى الآخرة ، وخصوصاً فى الدنيا ، وما أدركوا أن ما ابتغوه موكول باللبنة لا بالدينار ، وبأقنية الرى لا بأقنية الحياة الحريمية ، وبالحرث لا بالسيف . بل هو موكول ببناء العقول أكثر منه ببناء الدور لاسترقاق العقول وسجنها ، أو لاستخدامها فى سبيل الخليفة ولذاذاته .

أرز لبنان

هذا المقال مقتطع من « قلب لبنان » و « قلب لبنان » هو كتاب رحلات ووصف لمناظر هذا البلد ولتقاليد أهله . وقد حال الموت بين الكاتب وبين « قلب لبنان » فلم يستطع أن ينجز منه سوى ثلاثة أرباعه .

رفعت حجراً من حجارة الطريق إلى في ، فقبلته ورعماً حامداً آملاً ، قبل أن دخلت الظلال القدسية .

واستغفرت الأرز لامتهاني حرمة عزلته — هذه العزلة الفريدة في أعالي الجبال فوق وكّر النسور ، وراء حُجُب الآفاق .

استغفرت الأرز لأنني جئت أشق ستار كعبته ، جئت أستكشف مكنون سره .

• • •

إيه ربة الأشجار ، وسيدة الجبل الجبار ، أنت الرافعة أعلامك الخضراء ، بين هذه الصخور الدكناء ، بنت الحديددين ، وأخت القمرين ، حدثيني .

حدثيني ، وعلمي ، وارفعي بي إلى علياء إيمانك .

فقد جئتك مستعلماً ، مسترفعاً ، مستمدّاً من ينبوعك العالی القوة والحكمة .

• • •

حدثيني عن رياح الشمال .

— هي تجيئني مولولة نائمة ، فأوقفها لتسريح ، فتستحيل أنفاساً عطرية .

حدثيني عن الغيث إذا همى .

— هو يرقص على الصخور أمامي ، فتقهقه هازئة ، ويضرب على أوتار

قيثارتى ، فُتِسمعه أغانىّ البلايل والأمواج .

حدثينى عن العواصف .

— هى تصعد هائجة من الأودية ، ونهبط مجلجلة من الآفاق ، فتدق حولى طبولها ، فأفتح لها قلبي ، فتدخل نائرة . ثم تتحول أصواتها ، بين ذراعى ، إلى أصوات البوق ، والمزمار والناي ، ثم تسكن وتنام ، تحت أجنحة السلام .

حدثينى عن الثلوج .

— هى حصنى فى الشتاء ، ودرعى فى الربيع ، فتفت من ساعد العاصفة ، وتلطف حرارة الحب الآخذ بالازدهار . وهى فى الصيف أم جذورى ، ترضعهن تحت التراب وبين أصول الصخور ، فيبتهج قلبي ، ويرتفع رأسى ثناءً وحمداً .

حدثينى عن السيول .

— هى تعبث فى بيتى وتعيث ، فتعرى منى الجذور ، فأثر فوقها ريشى فى الصيف والحريف . وقد تعاوننى الأيام ، فتحمل إلى التراب على جناح الرياح ، فألبس جذورى ثوباً جديداً .

حدثينى عن الصخور .

— هى المحدثة قبلى وبعدى . منها ترابى ، وإليها مصيرى . وهى فى حياتى قرة عيى ، وزينة نفسى . بل هى هيكلى الخالد ، العامر اليوم بى ، السائل غداً عنى .

حدثينى عن السحب .

— هى حجابى وجلبابى ، وهى بخور محرابى .

والفصول .

— الشتاء سميرى ، والربيع سفيرى ، والصيف قيّسى الندى ، والحريف كاهن معبدى .

حدثينى عن الجليدين .

— النهار جليسى ، والليل ضجيعى ، وللاثنين يدنى قِدَمى وأجلى .

وعن القمرين .

— الشمس مديرة أسباني ، والقمر حاجبٌ في بابي . الشمس تطعم اخضرارى ،
والقمر يحفظ أسرارى .

والنجوم .

— هي أيدي الله الورديةُ الفضيةُ الذهبيةُ البنفسجيةُ . هي هي أيدي
الله ، تعطى ولا تسأل ، تنذر ولا تستعيد .

هي أيدي الله تحمل إلى كل ما فيه جمالٌ وابتهاجٌ وسكينةٌ وهدى .

أيدي الله — النجوم — ربات الشعر والفنون ، ربات الخيال الصّفىّـ
والغبطة الشجية .

النجوم هن الحسان اللواتي ينشدن في ظلال منسكى ، وهن العذارى اللواتي
يرقصن في معبدي .

النجوم هن الوفيات الصفيات ، البعيدات القريبات ، اللواتي يزلن وجوى ،
ويلاًمن كلوى ، ويعلمننى الابتسام ، ونسج الأحلام .

أرزّ جبالى ، أرزّ أجدادى ، إن لياليك ليالى ، وإن نجومك نجومى .

جبل طارق

هذا فصل من كتاب « المغرب الأقصى
الأسباني» (١) . وقد ألفه الكاتب بعد أن قام
برحلة إلى المنطقة الإسبانية في مراكش سنة ١٩٣٩
دامت ما يزيد على الشهرين . وفي هذا المقال وصف
بليغ لمقل جبل طارق العظيم . هذا الحصن الذي
شاهد ولا يزال يشاهد أعظم صراع عرفته الأمم المتحاربة .

من طنّف غرقفى في نندق الصخرة ، اللاحق ظهره بصدر الجبل ، تحت
هوله الخالد ، أطلت على مشهد رائع من مشاهد الجمال الطبيعي ، والعظمة

الدولية . فن الصنوبر الساحق النازعة أغصانه القديمة إلى القوضى ، إلى الأزاهير تحته في جنائن تتغنى بالوفر والنظام ، إلى ساحات معبدة فسيحة ، للعب « تنيس » ، إلى طريق أسحم أملس بين البلدة وطرف الصخرة الشرقى ، مظلل بالأشجار مزانة جوانبه بالأزاهير المتدلّية عرائشها من الجدران العالية - كل ذلك في انحدار غير انحدار الجبل إلى الفندق ، في انحدار خفيف لطيف إلى البحر .

وهناك على شاطئ البحر - الطبيعي الاصطناعي - في الأرض التي هي من الجبل والأرض الردم - مظهر من مظاهر العمران المدفعى ، والعظمة الصناعية البحرية ، المخجدة كلها من جمال الطبيعة أو الفن . هناك رمز العلم والقوة . هناك الأرصفة الممتدة إلى البحر ، المكعبة والمثلثة فيه ، كأنها قفايا هندسية . وهناك أبراج وجسور وعمد من حديد للبرق والدفع والنور ، ولرفع الأثقال ونقلها . وهناك المخازن والمستودعات ، والمرافئ والأحواض ، والمكاتب والمختبرات . وهناك المصانع لترميم السفن ، ولتنظيف والتجديد . وهناك المدرعات والغواصات والطرادات ، وقد عادت من نزهة في البحر المتوسط ، وهي متأهبة لدرء أخطار الحرب ، أو لخوض عبايها .

هي بلدة قائمة بنفسها . وهي دومًا في اشتغال : نار محرقاتها لا تخدم ، وأنوارها تصل الشفق بالفجر . هي صخرة الدولة البريطانية . هي هي جبل طارق عظمتها البحرية .

أما البلدة الأخرى ، جبل طارق السوقة ، فهي في الناحية الغربية ، بين الباب الشرقى والمرقا التجارى . وهي في سوقها الكبير الأوحده ، وجاداتها القصيرة الضيقة المتفرعة منه ، لاحقة لها هنا بسفح الجبل ، آوية هناك تحت صخوره ، ومستلقية على الساحل وعلى الأرض الردم الذى أضافها الإنكليز إليه .

في هذه البقعة المنقبضة المنبسطة معًا يقيم سبعة عشر ألفًا من الناس ، من السوقة ، وفيهم التجار والصيارفة وأصحاب المقاهى والملاهى والحانات من الأمم الغربية والشرقية ، وهم يتراطون بالإسبانية والإنكليزية ، ولا يحسنون إحداهما . لا يحسنون غير اللغة التى فيها رزق يومهم ، ولذات الليالى .

أهل جبل طارق ناس من جنس خاص بالصخرة . لا أسبان هم ، ولا إنكليز . لا وطنية لهم تحملهم على المشاغب والفتن ، ولا قومية تورثهم داعى الكد والاستعمار . هم حقاً بريثون من اليقظات القومية ، والنهضات الوطنية . فلا يكلفون أنفسهم فوق طاقتها فى عمل من أعمال الحياة ، ولا يكلفون إلا اليسير اليسير من الضرائب .

يسميهن الإنكليز « عقارب الصخرة » . وإنهم ، فى هذا الزمان المثقلة فيه كواهل الأمم بالضرائب ، لأسعد « عقارب » الدنيا شرقاً وغرباً . فلا عجب إذا كانوا لا يكثرثون ، مثل صنف من الفلاسفة ، بخزعبلات السياسة ، وأباطيل السيادة والمجد . إذا سألت أحدهم : أسبانى أنت ؟ قال : لا . أنكليزى أنت ؟ أجاب : كلا . وما أنت ؟ أنا جبلطارقى Gibraltarian . يقول هذا وهو لا يعلم لماذا سمي الجبل باسم طارق ، ولا هو على شىء من مزايا طارق وجبله . فإن كنا نرثى لحال من لا وطن ولا قومية لهم ، فاجبلطارقيون يرثون لحال من يجاهدون فى سبيل الأوطان .

ومن أين جاء الجبلطارقى ؟ أو أنه ما جاء من مكان عبر البحر . هل نشأ إذن فى ظل هذه الصخرة مثل الحيوانات القديمة ؟ هل هو من نسل الرينوسود أو القردة المقرضة ؟ ليس فى تاريخ الحيوان ما يثبت حقيقة هذا الافتراض أو ينفيها . أما تاريخ الإنسان — تاريخه الحديث — فهو ينير ويعين . هو يقول إن الإسبان ، سكان هذا الجبل قبل أن احتله الإنكليز فى القرن الثامن عشر ، هجروه بعد ذلك الاحتلال ، ووقفوا فى هجرتهم فى منتصف الطريق ، بينه وبين الجزيرة ، فأسسوا لهم هناك البلدة التى تدعى اليوم سان روكه San Roque . ولا تزال سان روكه ، مثل شقيقتها لالينا La Lina التى هى على الحدود الإنكليزية الإسبانية — وراء الصخرة — لا تزال مأوى لبعض أولئك النازحين من جبل طارق ، وأولئك الذين لا ترغب بهم السلطة المحلية ، أى المتشردين والفقراء اللاحتمين بهم .

وبعد أن نزع الإسبان من جبل طارق حل محلهم قوم الطليان . جاءوا

على الأخص من جنوا ، فرحب الإنكليز بهم ، فأقاموا في ظل الصخرة آمينين ، وتاجروا مطمئينين ، وتناسلوا فرحين ، فكانوا الأجداد لسكان اليوم .

قلت : إن في جبل طارق بلديتين ، بلدة هؤلاء (مراقبة) ، وبلدة الدفاع البحري البريطاني ، وليس بينهما خيط صلة من الحرير أو الشعر . بل إن البلديتين تختلفان في مزية أولية جوهرية . هي النطق الذى يميز الإنسان عن الحيوان . فالنطق كله ، بعجره ويجره ، عند الجبلطارقيين ، والصمت كله ، بذهبه ونحاسه ، عند الجنديّة والبحرية ، ومن يلوذ بهما من الإنكليز . فإن كنت طالب علم ، ولا يهملك مقدار ما فيه من الصحة ، فدونك والشارع الكبير الأوحده ، تحدث التجار فيه وأصحاب الحانات . وإن كنت تبتغى التحقيق والتدقيق فيما تسمع أو فى موضوع يصله ولو خيط من العنكبوت بالصخرة الإمبراطورية وأسرارها العسكرية ، فلا تدن من أحد العاملين فى تحصينها وإدارتها فإنهم ومن يلوذ بهم لا يحسون على الإجمال غير لفظتين اثنتين : لا أعلم .

خرجت صباح يوم أمشى ، ولا هدف غير ما يكشفه الطريق . فرأيت شجرة بين الأشجار لا أعرف اسمها . وأنا فى هذه الحال على شىء من شواذ الطبع فأغتاظ لجهلى ، ولا أقف عند حد فى فضولى . قلت : أغتاظ ، ففرطت . فإن شجرة أجهل اسمها بين أشجار أعرفها حينما أشاهدها ، لشجرة مكربة مضنية . لأنها لتضنينى . أقول ذلك بلسانى الشرق وإحساسى الموروث . وأما بلسانى الغربى الذى تمرن على التدقيق فى التعبير ، وأحسن شيئاً منه ، فأقول : إنها لتفسد النزهة على . ولست فى ذلك مفرطاً أو مفرطاً .

وهاكها متحدية بين أشجار الصنوبر والسنديان . هى شبيهة بالسنديان وليست منه . وما هى كشجرة من عوامل الدفاع أو من أسرار الحصون والقلاع . فلعل هذا الضابط يساعد فى كشف غمى . صبحته واعتذرت ، ثم سأله قائلاً : « من فضلك ، ما اسم هذه الشجرة ؟ » ، فقال بلهجة مزنقة : « لا أعلم لى بالأشجار » . ثم سألت رجلاً فى ثوب مدنى أنيق ، فتأسف وأجاب جواب الضابط .

بعد ذلك بان لي في أعلى الجبل شيء من البناء غريب أنساني الشجرة . وكانت امرأة تدنو إذ ذاك مني ، وفي وجهها نأ التقوى والصلاح ، فسألتها عن ذلك البناء ، فأجابت بلهجة الضابط : « لا أدري » وهؤلاء الجنود الأربعة ، وقد خرجوا على ما يظهر متزهين . لا بد أن يكون واحد منهم . ذلك الرقيق الإهاب الضارب إلى الاصفرار ، عالمًا بعلم النبات فسألته اسم الشجرة . وكنت وأسفاه مخطئًا في ظني .

ثم سألت رفيقه أن يقول لي أي يوم وصل الأسطول إلى جبل طارق ، فسمعت للمرة الرابعة أو الخامسة كلمة السر : لا أعلم .

إننا نفي جبل الصمت والتكتم . ولكن الحياة تأبى الإطلاق ، وتفتر من القياس الواحد فلا بد أن نلقى حتى في المقابر لسانًا ناطقًا . وما هو ذا تحت الشجرة التي كادت تفسد على نزهة ذلك الصباح .

كان الرجل يحرق بعض الأوراق . فسلمت ، فرد السلام بإنكليزية سليمة ، ولهجة كريمة . وقد أجاب على سؤالى الأول جوابًا استبشرت به . فما هو من الجندية ، ولا من البحرية ، ولا من يلودون برجالهما أو بعيالهم . إنما هو صاحب مغسل للجنود . وقد كان في تلك الساعة يلهو بحرق الجرائد التي تجيئه من بلاده .

فقال وهو يزيد في نارها : تجيئنا جرائد لندن مرة واحدة في الأسبوع ونحن تقنع بذلك . لا نريدها أكثر من مرة كل سبعة أيام . أهلنا هناك « في إنكلتره » يشقون كل يوم بطبخة من الخوف والذعر — الحرب على الأبواب — تطبخها لهم الصحافة صباح مساء . ونحن ها هنا يجيئنا الخوف والذعر دفعة واحدة مرة كل أسبوع . فهل تصلح هذه الجرائد لغير النار . أحرقها ، وبرد — خفف عنك .

وعند ما سألته اسم الشجرة أدهشني بثقافة عالية . فقد أعطاني الاسم وشفعه بنادرة تاريخية ، ومثل لاتيني رواه باللغة الأصلية . عجيب أمر هؤلاء الإنكليز ، فإنه يبلبل الباحثين الراغبين بالحقيقة فيهم نقدًا وتقديرًا .

وقفت معجباً بذلك الرجل كل الإعجاب . أمثقف في جامعة إكسفورد
وصاحب مغسل للجنود يجبل طارق ؟ سعدت دفعة واحدة بعلمه كما يشقى هو
بجرائد لندن . وقانا الله الخير إذا طمى .

قال صاحبي زاده الله علماً وفضلاً : اسم هذه الشجرة لاتينى هو ملتا Multa
ولتسميتها قصة قديمة هي أن بعض الجنود الرومانيين في عهد يوليوس قيصر ،
عصواضابطهم فقاصصهم قصاصاً قرنه بالتجويع . اعتقلهم في معتقل بئى بين أشجار
مثل هذه الشجرة . وحرهم الأكل أياماً . وكانت أغصان الأشجار تتدلى في
المعتقل بينهم وهي تحمل هذا الحب ثمرتها (هو شبيه بحب الدوم) فتناول منه
أحد الجنود وأكل مجازفاً بحياته ، ففرح بمجازفته ، فاقتدى به إخوانه ، فأكلوا
من تلك الثمار واستمرؤوها جميعاً ، وهم يضحكون من الضابط الذى حاول
تجويعهم . إذ ذاك نطق الحكيم فيهم بالكلمة التى ذهبت مثلاً : نيمو ملتاريو
إلخ ، أى ليس بين الناس حكيم هو دائماً حكيم . وسميت الشجرة ملتا .

ومن مدهشات ما شاهدت في ذلك الصباح راع ولا كالرعاة — شاب في
ثوب إفرنجي نظيف ، يتأبط كتاباً ، بدل أن يحمل القصب أو الناي ، ويسوق
قطيعاً من المعزى . هو ذا الراعى العصرى المتمدن ! كتاب يذهب بالناى — علم
يذبح الفناء والهناء ! .

وهناك من الأشجار ما يذكر بالغايات والبساتين اللبنانية — بصنوبر المئن ،
بزيتون الشويفات ، بسنديان الأديرة ، بتين عمشيتا . رموز وإشارات ، لا بساتين
وغايات . على أن الرمز وجماله السابغ يجتمعان في العرائش المنورة بشتى الألوان ،
الأرجوانية والبنفسجية ، والحمراء والبيضاء ، هي ذى عرائش ال « بورغنتى » ومجد
الصباح Morning glory والدفلى والياسمين ، تحمل إلى طيب بيروت في ليالى
صيفها . ومجد الربيع منعشاً فوق أسوار بيوتها والبساتين .

أمعنت في الطريق المفروش بالأسفلت ، المصعد في الجبل ، فررت ببيوت
وضيعة جميلة تحاول الاختباء بين أشجار ال « ملتا » والملول والصنوبر . هي

بيوت للضباط البريين والبحريين . وهذه أكواخ لاصقة بالصخور الشاهقة يقيم فيها بعض الفلاحين ، وهم يكتفون من المهنة بتربية الدجاج وبيع البيض إلى الجنود ، وهاك ديراً بمدرسة للراهبات فوق الطريق ، ومجموعة تحته من البنايات الكبيرة ، تصل بعضها ببعض الجسور والأروقة ، هي المستشفى العسكرى .

دنوت من المكان العالى أمامى ، القائم فوقه بناء ينشر علماً سرى الخبير لثلى . هو مركز الأنباء والإشارات البحرية ، يتبادلها والسفن الحربية والتجارية ، المستأذنة وهي فى المضيق بالدخول إلى الميناء .

وصلت إلى الثكنة العسكرية عند منتهى الطريق فى طرف الصخرة الجنوبي الغربى ، المشرف على الناحية الشرقية منها - على جون « كاتالان » الجون الجميل الذى رأيت بعدئذ من الباخرة المشرفة . أوقفنى الحرس . لا مرور عند هذا الحد بدون إذن من الحكومة .

عدت أدراجى بشئ من التعريج ، فوصلت إلى نفق فى صخرة ضخمة ، ووقفت عند كتابة محفورة إلى جانب المدخل ، فإذا هى تقول إن هذا النفق فتحه وأتمه تبرعاً جنود جلاله الملكة فى سنة ١٨٤٢ ، ثم بلهجة شعرية تندر فى الأنصاب والآثار الإنكليزية :

« كذلك كان ، وكذلك سيكون » « هو الجندى البريطانى »
« الشجاع فى الحرب » « المحب فى أيام السلم للعمل والنظام »

دخلت النفق المؤدى إلى أرض وراء الصخرة مهدها كذلك أولئك الجنود ، فبنيت فيها الثكنات . هناك فى تلك الساحة ، تحت جفن الجبل وفوق عين البحر ، تعصف الرياح على الدوام - الرياح الشديدة الباردة حتى فى الصيف . وقد كانت فى أشدها ، على ما أظن ، صباح ذاك اليوم . فوليتها ظهري - رحمت معها كما يفعل صاحب الشراع إبان العاصفة - فإذا بى عند الرأس الذى يسرع فى انحداره إلى البحر من نواحيه الثلاث الشرقية والغربية والجنوبية . وإذا بى أمام صف من الخنادق المبنية بال « أسفلت » وأدراج إليها ، وأروقة وراءها وبينها ، وأبواب إلى

داخلها ، حيث تكمن المدافع التي تبرز خياشيمها من نوافذ ترى البحر ولا يراها .

وبين هذه الخنادق فوق سطوحها ، مصاطب مصونة لمدافع كبيرة أخرى ، دهنت بالدهان الأزرق جرافاً .

كذلك كان ، وكذلك سيكون . صدقت الكلمة المحفورة إلى جانب المدخل لذلك النفق . فإن أسباب الدفاع بالأمس لا تصلح اليوم ، وقد لا يصلح في المستقبل ما كان منها صالحاً في هذا الزمان . وهذا الصالح اليوم هو في أماكن أعلى من هذا المكان ، تحت القنن ، وفي بطن الجبل . هناك خنادق ومصاطب ومدافع جبارة ، لا تعرف ولا ترى ، لا من البر ، ولا من البحر ، ولا من الجو .

أما ما يرى في تلك المنحدرات الحادة الزوايا من البقع البيضاء الكبيرة ، فهي موضوع حدس وتكهن للمسافرين في السفن التي تعبر المضيق . فيقولون : هي جدران للطريق المؤدى إلى رأس الجبل . ويقولون : هي بقع صخرية جرداء تظهر في بياض سابغ ، فتخفي ظلالتها على الناظر إليها من عرض البحر .

أما الحقيقة فهي غير ذلك . جبل طارق صخرة تطل فيها الينابيع ، ومياه البلدة والحصون ، قديماً وحديثاً ، تجمع من الأمطار في الآبار . أما آبار اليوم فهي أحواض عمومية كبيرة تتوزع منها المياه إلى البلديتين ، التجارية والعسكرية ، ومن أين تتسرب إليها مياه الأمطار؟ هوذا السر في تلك الجدران المبنية من الحجر الكلسي المنحوت بناءً محكمًا ، على صدر الجبل ، فتتلقى الأمطار ، وتحملها إلى القنى في أسفلها المتصلة بالأحواض .

رأيت العمال في إحدى الساحات الصغيرة بالبلدة يحفرون خنادق أو أكواخاً يلجأ إليها الأهالي من الغزوات الجوية ، إذا وقعت الحرب . وبينهم يحفرون عشروا على آثار القنوات القديمة التي بناها العرب للغرض نفسه . فما تغير في جمع المياه وتوزيعها غير الطريقة شكلاً واتساعاً .

جبل طارق -- كم قامت حوله ولأجله من الحروب والحصارات منذ وطأته

أقدام العرب بقيادة طارق بن زياد (٧١١ م) إلى يوم استيلاء الإنكليز عليه المرة الأخيرة (١٧٨٣). كان يدعى قبل الفتح العربي جبل ألبه - الاسم فينتي - ويوم احتله طارق باثني عشر ألفاً من رجاله العرب والبربر كان في حوزة الغوط. فدارت بينهم وبين المحتلين رحى الحرب وفي يوليو من سنة الفتح ، على شاطئ النهر القريب من المكان القائمة فيه اليوم مدينة شربش Gereg كانت الواقعة الفاعلة ، التي دامت ثلاثة أيام ، وانتهت باندحار الغوط وتقدم العرب شمالاً وغرباً .

وقد حصن طارق الصخرة بما بنى من القلاع والأبراج على الشاطئ الغربي وفي أعلى الجبل . منها البرج المربع الذي لا يزال قائماً هناك . تلك الجدران الدكناء ، بين فسحات من الاخضرار وتحت أطناف من الصخور ، وإن تحدثت الرواسي والسنين ، وظلت سليمة بعد كل ما شاهدت من حرب وحصار ، إن هي إلا شهيدة الزمان ، وفدية التخاذل والنسيان .

استمر حكم العرب في جبل طارق ، على اختلاف عهودهم ودولهم ، سبعمائة وخمسين سنة . فانتزعه منهم الأسبان سنة (١٣٠٩) ، ثم فقده . وفي سنة (١٤٦٢) كان الفوز الأكبر لهم ، فأخرجوا العرب منه ، وزادوا في تحصينه فظل في حوزتهم ، بشيء من التقطع ، أكثر من مائتي سنة .

أما استيلاء الإنكليز عليه فقد كان للمرة الأولى في الحرب الأوربية (١٧٠١ - ١٧١٤) التي أثارها ملك فرنسا الكبير لويس الرابع عشر .

ما أطفه الأمور الظاهرة التي كانت تقام من أجلها الحروب في الماضي ولكنها كانت تنطوي على غيرها ، وهي الجوهرية . هي هي المطامع الاقتصادية الاستعمارية بعينها . أراد لويس الرابع عشر أن ييسط نفوذه على إسبانية بإقامة حفيده البرنس فيليب ملكاً عليها خلفاً لشارلس الثاني ، فقامت إنكلترا تتوبل لاختلال التوازن الدولي الأوربي ، فألتمت حلفاً منها ومن النمسا وهولندا والدنمارك والبرتغال لمحاربة الفرنسيين والأسبان . دارت رحى الحرب في أوربا بضع سنوات ، ثم امتدت إلى أسبانية ، فاحتل الأحلاف قادس ، وقررت

القيادة العامة أن تحتل كذلك جبل طارق . فأطلقت القنابل عليه في ٢٣ يوليو سنة (١٧٠٤) ، واستمر الحصار ستة أشهر فتكفل بالنصر في ١٠ مارس سنة (١٧٠٥) للمحاصرين .

كانت الجنود الهولندية والإنكليزية مشتركة في ذلك الحصار . ولكن الأدميرال الإنكليزي روك Rooke ضرب الضربة الأخيرة الفاصلة ، وأمر ، بدون أمر من لندن بأن يرفع فوق الصخرة العلم الإنكليزي ، فقبلت لندن بالأمر الواقع !

يبد أن ذلك الاحتلال لم يدم طويلاً ، في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، لا للإنكليز ولا للأسبان ، الذين حاصروا الصخرة فاستعادوها ، ثم فقدوها . وظل الاحتلال الإنكليزي متقلقلًا حتى الحصار الأكبر برًا وبحرًا (١٧٧٩ - ١٧٨٣) ، الذي يعد من أعظم حصارات التاريخ . ذاق الإنكليز فيه أشد ويلات الحرب وأمرها . ومع ذلك ، وبالرغم عن مساعدة فرنسا ، ما استطاع الإسبان أن يزعزحوهم من مراكزهم المنيعه . كانوا والصخرة صنوين . فرفع المحاصرون الحصار ، وعقدوا والمحاصرين معاهدة صلح في ٦ فبراير سنة (١٨٨٣) .

منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا استمرت سيادة الإنكليز في جبل طارق دون انقطاع ، وهي تزداد قوة وتمكينًا بما بنوا فيه من الحصون ، وبما حفروا من الأنفاق ، وبما أسسوا من المرافق وردموا من البحر ، وبما حسنوا إجمالاً في أسباب المناعة البحرية ، فغدت الصخرة أمضى الحصون وأعزها في العالم . وظلت كذلك حتى عهد السلاح الجوي الذي نحن فيه .

نبذة من مقدمة « ملوك العرب »

كنت في الثانية عشرة من عمري عندما سافرت المرة الأولى إلى الولايات المتحدة . فلم أكن أعرف غير الشيء اليسير من اللغتين العربية والإفرنسية ، وما كان في ذهني من العرب وأخبارهم غير ما كانت تُسمعه الأممات في لبنان

صغارهن . هس ، جا البلوى ! والبلوى والأعرابى واحد إذا رامت الأم « بعبعاً »
تخوف به أولادها .

هجرت وطنى وفى صدرى الخوف ممن أتكلم لغتهم والبغض لمن فى عروقى
شئ من دمهم . والبغض والخوف هما توءما الجهل .

أما الأمة الإفرنسية فما كنت أعرف من أم الأرض سواها . وأما أميركه فقد
كنت فيما عرفته منها بعيداً عن الأم وعن المدرسة .

تناولت الكأس من يد الوجود وقد ملأها الشعب الأمريكى بنفسه . ومع ذلك
فلم تخلُ مما امتازت به الكأسان الأوليان . رشفت فى نيويورك الحمام تلو الحمام
من العلوم المشوبة ، وفيها أشياء من الجهل المتلألئ وما يمازجه من الخوف
والإعجاب .

غدوت بعد عشر سنين فى أميركة معجباً بنشاط الشعب الأمريكى وبحيرته
فى الفكر والقول والعمل ، خائفاً من نتيجة الجهاد المادى هناك ومن التكالب
فى سبيل الحياة الدنيا . وما كان خوفاً على الأمة الأمريكية وأنا فى ذلك الحين ،
فى عين نفسى ، قطب كلما اهتمت له ونقطة الدائرة فى كل ما ملت إليه .
خفت أن أغلب فى ذلك الجهاد ، أشفقت على نفسى من ذاك التكالب .

ونسيت فرنسة إلا فى آدابها ، تلك الآداب التى زادتنى ضعفاً وتردداً فى
مضمار الحياة . صرفتنى عن حقائق الوجود المادية ، وزينت لى فى الفنون الجميلة
الحقائق المعنوية . صرت فى نيويورك كئيباً يحمل كتاباً ، وغاوباً من غواة
الفنون يمشى فى الجنائن العمومية سبهلاً ، فانفتحت أمامى أبواب من العلم متعددة
واتسع مجال الاضطراب والغرور .

ولكن الآداب الإنكليزية عادت بى إلى الشعب الإنكليزى فوجدته فى
أمور كثيرة ، أخلاقية واجتماعية ، أرقى من الشعب الأمريكى ، أو أحب إلى من
كان مثلى . فكان لى فى ذا العلم عون على مقاومة تيار الاقتباس والتأمرک ، فلم
أتخلق مثل سواى من السوريين هناك بأخلاق الأمريكين كلها . والفضل فى ذلك

علىّ هو لفيلسوفهم الأكبر إمرسون الذى كان دليلى الأول إلى محاسن الإنكليز فيما كتبه عنهم وعن سجاياهم .

وقد عرفنى إمرسون إلى كرليل ، وكان كرليل أول من عاد بى من وراء البحار إلى بلاد العرب . أجل ، وقد يستغرب قولى إنى عرفت بواسطة الكاتب الإنكليزى الكبير سيد العرب الأكبر النبى محمداً فأحسست لأول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت أميل إلى الاستزادة من أخبارهم .

ثم فى غزواتى للكتب الإنكليزية غنمت كتاباً استوقفنى ظاهره الفخم وراقتنى الصور فيه . وما كان العنوان لينبئى بشيء أكرهه أو أحب . قرأت كتاب الأهمبريا فأدركت أن المؤلف يريد بالعنوان الحمراء ، وعرفت أن الحمراء هى لؤلؤة تاج العرب فى الأندلس .

لله أنت أيتها البلاد العربية التى لم يشأ الله أن أجهلك حياتى كلها ، فبعث إلىّ ، وأنا بعيد عنك ، إنكليزياً يعرفنى إلى رسولك وأميركياً يصف لى محاسن أبنائك .

بعد أن قرأت كتاب الحمراء مازج عقلىتى الأميركية الإفرونسية الإنكليزية شيء من الخيال الشرقى ، فصرت أحلم بذلك المجد الماضى أحلاماً تمثلنى حياً فيه بل تمثله حياً أماًى .

عدت إلى بلادى كئيباً يحمل كتاباً ، ويرغب فى أن يكون الكتاب مئة كتاب وكتاب . وكنت لا أعرف من لغتى وآدابها غير اليسير اليسير ، فتغلغلت فى سراديبها دون أن أرئى لخالى . وبيننا أنا أتخبط فى دياجى اللغة عثرت على كتاب شعر أنسانى الكسائى وسيبويه وكل من علم حرفاً فى البصرة والكوفة .

جمعنى الله سبحانه وتعالى بأبى العلاء المعرى بعد أن هدانى بواسطة الفيلسوف الإنكليزى إلى الرسول العربى . قرأت اللزوميات معجباً بها ، ثم قرأتها مترنحاً ورحت أفانخر بأنى من الأمة التى نبغ فيها هذا الشاعر الحر ، الجسور ، الحكيم .

عدت إلى أميركة أستصحب صاحب اللزوميات ، وكنت ترجمانه هناك ، فساقنتى المهنة إلى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية ، فاجتمعت فيها بعدد من المستشرقين الذين صوروا لى الحياة رحلة في الأرض دأمة ، وصوروا الأرض بادية عربية نبغ فيها محمد بن عبد الله القرشى وامرؤ القيس الكندى ، الشعر والنبوة والدهناء ، والواحات في بحار من الرمال ، والنخيل في الواحات يهمس في أغصانها النسيم ، ويهز جذوعها السموم ، وصوت الساقية وهى تغنى للأرض المنعمة في ظلال النخيل ، وبنية البدو تغنى بحمل الساقية - وماذا في نيويورك ؟ .

ماذا في نيويورك غير الضوضاء والعناء والعياء والبلاء ؟

هذا الرحالة بلغراف وترجمانه اللبثانى الذى صار بعدئذ بطريركاً عظيماً يحدثانى عن شُمَر والقصيم والعارض والرياض . وذلك المستعرب بركهارت وقد دخل إلى مكة حاجاً ، مسلماً صادقاً نقياً . وهذا العلامة بُرتُن يقص قصة عجيبة بظلمة بزّار من سمرقند قد حمل الكيس - تفتا هندى شاش حرير يا بنات ! ليكشف له أسرار الحرير . ثم ركب العيس ، وكان دليله إبليس ، فاقنتى أثر بركهارت لغرض في النفس ، ونظم قصيدة كفرية كفّر بها عن كل مآتيه في التليس .

وهذا خليل الذى راح يهول بنصرانته في وجه البدو ، فقاسى في رحلته الأهوال ، ونجا غير مرة من مخالب الاضمحلال . اضطهد في بريدة ، وطرد بن عنيزة ، وسلب وضرب ، وترك في النفود يهيم على وجهه ، وليس في جيبه غير خمسة ريالات ، وليس في قلبه ذرة من التدليس والتليس . الدرويش خليل ، كأنه كان يهوى الأخطار فيجذبها إليه . خليل النصرانى ، جاء بتعصب أسكتلندى يُشير في العرب التعصب الإسلامى . خليل النصرانى الكافر ! قتلوا رأسه بالسيف ! ولكن الله أخرجه من شبه الجزيرة حياً ليكتب كتاباً لا يموت .

وكل هؤلاء من الأجانب يسيحون في بلاد كانت قديماً ولا شك بلاد أجدادى ، ويخاطرون بأنفسهم فيها حباً بالعلم ، فيكشفون منه الخبأ ، ويجلون

المصدأ ، ويقربون البعيد ، ويغربون في اللذيذ المفيد . وأنا في نيويورك كتيب يحمل كتاباً ، ويطرق للمحرر الإنكليزي المتعطرس باباً . أديب شعره طويل ، وصدرة عليل ، يسرف من ذهب الحياة في تسويد المقالات . آلة كاتبة ، يرقص حولها الهم والأمل متخاصرين . أف لها من زوجة نقاقة ، ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة ، وأية عبودية أشد من عبودية الآلة الكاتبة وأخبث . طلقته ثلاثاً ، وعدت إلى بلادى أعد العدة لرحلة تبعثنى عنها وعن الكتب والمجلات . والأدباء والأديبات .

في الطريق إلى صنعاء

بحس المطالع وهو يقرأ هذا الفصل المقتبس من الجزء الأول من « ملوك العرب » أنه في بلاد العجائب أو كأنه يطالع قصة من ألف ليلة وليلة . وفيه ينجل لك كل شيء من مقدرة الكاتب في الوصف والتحكم فترى بعض الصور التي تزخر بها هذه الرحلة : كرى الفخار على الرجال وهم يستمدون للرحيل ، وإطلاق البنادق والفتور ، ومجالس القات وغيرها .

ركبنا قبل انبلاج الفجر سيارة صغيرة وخرجنا من لحج نبعي الدكيم التي كانت يومئذ حدود السلطنة اللحجية شمالاً وفيها حامية إنكليزية من الهنود . وكانت الحملة قد سبقتنا إليها ومعها الحرس يركبون الهجن ، ورسول القاضي عبد الله العرشي إلى أمير الجيش ، وبعض المسافرين الذين أحبوا أن يرافقونا . وكان في الدكيم أيضاً عشرة جنود من جيش سلطان الحواشب علي بن مانع ، جاؤوا بأمر منه يستقبلوننا ويصحوننا في بلادهم . والحوشي لا يثقل نفسه بالعدة والثياب . ليس في العالم جندي أخف منه حملاً ، وأشد منه بأساً . ولا أظن أن في جنود الأمم المتمدنة أجساماً مثل أجسام العرب في اليمن الأسفل . هاك الحوشي مثلاً وجلده الأسود أو الأسمر يلمع في نور الشمس كالنحاس المصقول ، وعضلاته الشديدة المفتولة تتحرك كالأجزاء الدقيقة في آلة كهربية ،

وقامت المتناسقة الأعضاء تسر بالعرى فيكنى بالقوطة يشدها على وسطبه ليستر بها عورته — هو ذا معرض محاسن من صنع الله تمتع به ناظريك إذ شب صاحبه ، والبندقية على كتفه والأمان في قلبه ، كالغزال الشارد أمامك .

من هؤلاء الحواشب ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة مشى إلى جنبي وهو ينظر إلى من حين إلى حين كأنه يبغى الحديث . سرنا في وادي دُبن ، وهو طويل يتصل شمالاً بمدينة أب ، والشمس حتى في نيسان تشوى الضب . وكنا بدأنا في التصعيد ، فترأى لنا خيال أسحم على الأفق البعيد ، فوق قنن من الجبال كثيرة . فهتف الجندى الصغير قائلاً : هذا وروّه — جبل وروه — تراه من عدن وستراه غداً من ماويه . لم أتأكد القسم الأول من مقاله لأنى لم أهتم وأنا في عدن بالجبال . ولكنى تأكدت المبالغة في القسم الثاني منه . رافقتنا وروه يوماً واحداً وغاب عن الأبصار . وكذلك الجندى الصغير الذى تأسفت على فراقه . كان يحدثنى وهو ينقل البندق لثقله من كتف إلى كتف ، ويمشى على بؤس حاله سامد الرأس .

— العفو يا أمير حضرتك من الشام ؟ أجبته بالإيجاب .

— وهل راضية الشام بالسلطان ؟ أخبرته بأن حكم السلطان فيها قد انتهى ، فما سره الخبر ، فقال : السلطان رجل طيب يا أمير ، ما فيه شر .

سألته : وهل تحب الأتراك ؟ فهز رأسه وأشار بعينه أن نعم ثم قال : سعيد باشا رجل طيب . كنا في أيامه مستريحين ، وكانت الظلظ كثيرة . أما الآن يا أمير فلا سعيد ولا ظلظ . انظر إلى ذلك الجبل . وراءه الصبيحة أشر العرب . وهم دائماً يعتدون علينا نحن الحواشب المحافظين على الأمن . الحوشى فقير ولكنه منيع ، ورفع بندقيته مشيراً إليها ، ثم قال : سلامة القوافل في يده .

أما الصبيحة يا حضرة الأمير فهم بحاربونا لأنهم لا يحبون الأمن . ونحن نهجر حقولنا ومواشينا ورزقنا لنحمل هذا البندق ، لنوجد في البلاد . الأمن للعباد ، وحضرة الأمير — العفو — لا يقدر أن يسافر وحده ، لا والله . بناقنا

وحياتنا ملك السلطان ، وهى الآن تحت أمر الأمير . هل أنتم تحكمون فى بلادكم ؟ .

قلت له : إن اسمى أمين لا أمير ، وإنى محكوم مثلكم لا حاكم .

— ومن يحكمك يا حضرة الكامل ؟

— يحكمنى الآن الإنكليز . هل تحب الإنكليز ؟

— يقول السلطان إن الإنكليز ما فيهم شر .

— وهل الحواشب يحبون سلطانهم ؟

— أى والله نحبه ، على بن مانع رجل طيب ، ما فيه شر . ولكن من هو

الحوشى وما هى أهميته ؟ البندق على كتفه ، والموت قدامه ، ولا يعرف فى الليل إذا كانت تشرق عليه الشمس .

سرنا فى الوادى وادى دُبن والجبال حولنا وأماننا تمنع عنا الهواء ولا تقينا حر الشمس ، فوصلنا الظهر إلى الخُنْدُق وهى قرية خيامها من القش والغرف ، فيها سمرة للقوافل والمسافرين . فاسترحنا هناك ساعة الغداء ، وأرسلنا هجاناً يحمل منا كلمة سلام إلى سمو السلطان على وينبته بقدمونا .

استأنفنا السير بعد الظهر فالتقينا فى نصف الطريق بين الخُنْدُق والمسيمير بفرقة أخرى من جيش السلطان ، يتقدمها ابنه الصغير ركباً جواداً رائعاً . جاؤوا من قبله يلاقوننا ، فدوت فى ذلك الوادى أصوات البنادق ترحيباً . أطلقوا ثلاث طلقات فأجبتناهم بمثلها ، ورحنا وابن السلطان يتقدمنا ورجله الحافية فى الركاب ، ويده اليمنى على عمامته الكبيرة الرفيعة ، الطويلة الذؤابة الكثيرة الألوان كأنها عمامة العيد ، ترقص فرحاً على رأسه ، وهو على ظهر الجواد أثبت منها .

وصلنا عند الغروب إلى قصر السلطان فى المسيمير ، وهى قرية بيوتها من الحجر واللبن قامة على ربوة خضراء ، ينساب عند سفحها فى وادى دُبن سلسيل فضى ، إلى جنبه الحقول المزروعة وهى تتموج حول أكواخ من القش . إن الجمال الذى يجلب المكان لينبىء بالسلم القروى ، ولكنه مفقود . فلا فى سلطنة ابن مانع وجدناه ولا فى قلبه . ومن المستول ؟ سيجيب السلطان

على سؤالنا . هذه جنوده تطلق البنادق ثانية ولاء لاعداء تأهيلات لا تهويلا .
 دخلنا إلى بيت في القصر أعد للضيوف . وبعد قليل جاء سموه للسلام ،
 يتبعه الخدم وبين أيديهم أطباق الطعام : خبز بسمن وسكر ، ورق وبرغل
 ولحم وعسل . فجلسنا في حلقة على الأرض ننطح بأيدينا الزاد . وكان السلطان ،
 وهو ينظر إلينا ، أعجب بسنى البرغل سفياً فقال : أنت منا يا أمين ! أنت
 والله منا . . .

كان السلطان على نحيلاً كالحيال ، عصبي المزاج ، حاد الطبع ، حر
 الكلمة . حدثنا بعد العشاء عن أحواله قال : أنا بين أربعة يا أمين ،
 والأربعة يقصرون حياتي ؛ هذا ابني وهذه لحيي البيضاء . هو ابني الوحيد يا أمين ،
 ولكني أذبحه والله ولا أسلمه رهينة لأحد ، أما الأربعة فالواحد منهم فوق ^(١) يشهر
 علينا الحرب لأننا هادئون ساكتون لا نعتدى على أحد . والآخر تحت ^(٢) يغزونا
 لظنه أننا أغنياء وأن خزنة الإنكليز تحت أمرنا . والثالث هناك ^(٣) لا يخاف الله .
 والرابع ^(٤) عدونا اليوم ، صديقنا غداً ، لا نعرف والله متى ينقلب ولماذا ينقلب !
 وعلينا أن نحاربهم كلهم . وإننا والله نحاربهم يا أمين ، ونحاربهم حتى نقتلهم
 أو يفنوننا . . . لا والله . لا نأخذ من القوافل إلا مجيدياً واحداً على كل جدل .
 والإمام يأخذ مجيدين وصاحب الحج يأخذ ثلاثة .

— وكم تأخذون مشاهرة من الإنكليز ؟

نظر السلطان على إلى يده على لحيته ، وثلاثة أصابع من الأخرى مرفوعة ،
 وقال ثلاثمائة روية وهي والله غير كاملة . يدفعونها لنا كل ستة أشهر ولا يدفعون
 غير ألف وستمائة روية . أحسبها . وعلينا أن نؤمن للقوافل الطرق ، وأن نطعم
 أهلنا ورجالنا ، وعندنا قبائل يذكروننا حين يجوعون وينسوننا حين يشبعون .
 الإنكليز ضرورة يا أمين .

(١) إمام صنعاء الإمام يحيى .

(٢) عرب الصيحة .

(٣) عرب الضالع جيران الحواسب شرقاً .

(٤) ملطان الحج .

قلت : ولو دفع لك الإمام مشاهرة مثل الإنكليز أتبركهم وتواليه ؟
فأجاب على الفور : لا والله . أنا متعاهد والإنكليز فلا أخلف . وسأبقى
صديقهم دائماً . أى والله . الإنكليز يا أمين يعقلون . عندهم حكمة كما عندهم
مال . نعم هم غير مسلمين ، والمسلمون إخوان . ولكن القلب يعرف الأخ
يا أمين والسياسة لا تعرف غير الضرورة .

إن الحواشب مثل الشوافع في اليمن وعسير يكرهون الإمام ، لا لأنه
عدوهم في الحرب فقط أى في ضرورات السياسة ، بل لأنه عدوهم كذلك في
الدين ، وفي المذهب . هو زيدى شيعى ، وهم سنيون .

ودعنا السلطان تلك الليلة شاكرين له حسن الحفاوة والضيافة وأعلمناه
أنا سننهض باكراً للرحيل ، فلا نكلفه مشقة القيام مثلنا ليوعدنا ثانياً . وفهمنا
منه أنه قبل بذلك . إلا أننا في صباح اليوم التالي ، بينما كان المكارون والخدم
يحملون دهشنا بل ذعرنا لحادث فيه منتهى الغرابة . كنا مقيمين في جناح من
القصر قبالة الجناح الذى يسكنه الحريم ، وبيننا الحوش الذى كانت فيه الركائب
والخدم ، فسمعنا بغتة أن إناء من الفخار تكسرفيه ، فظننا أنه وقع من السطح .
ولكن إناء آخر تبعه رأيناه يُرمى من النافذة ولم نرَ الرامى - فأصاب أحد العساكر
فرفع صوته شاكياً . ثم جفنة ، ثم قطعة أخرى من الفخار تحطمت بين
أقدام البغال ، فعلت الضججة في الحوش وسمعنا رجالنا يصبحون : هم يطردوننا عجلوا
يا ناس ، هذه ضيافة ابن مانع ، عجلوا بالرحيل .

خرجت وقسطنطين مسرعين فركبنا وسرنا نتقدم الحملة . نزلنا من الجبل
إلى السهل فالنهر وقلبنا - أقول قلبي ولا أتهم رفيقى - بختلج حقاً ورعباً ،
ظننا أننا بعدنا عن الخطر وعن ضيافة صاحب السمو الحوشبى عند ما وصلنا
إلى النهر . ولكننا قبل أن اجتزناه سمعنا أصواتاً تادى : قفوا ، قفوا . فلم نقف ،
فأطلقوا إذ ذاك البنادق طلقات متعددة ، فقلت لرفيقي : هو ذا الخطر الذى
نتوقعه . دنت الساعة يا قسطنطين ، قف واشهر سلاحك .

بعد قليل قرب القوم منا فإذا هم خدّم السلطان يحملون على رؤوسهم

الأطباق ومعهم بضعة عساكر . جاءونا بالفطور ! أى بالله . كيف نساfer قبل أن نفطر ؟ وكيف نساfer قبل أن نودع السلطان الذى نهض باكراً للوداع ؟

سألناهم عن الفخار الذى رمونا به ، فأخبرونا أن السلطنة ، وهى فى خدرها رأتنا من على السطح فى أهبة الرحيل ، فنهضت كذلك باكراً من أجلنا . فأرادت تنبيه الخدم النائمين فى الطابق الأسفل ولم تشأ أن تسمعنا صوتها أو ترينا من النافذة وجهها فرمتهم بالفخار تستيقظهم لينهضوا ويهيئوا لنا الطعام . الضيوف ، انهضوا للضيوف ، والحقوهم بالفطور ، وأطلقوا الرصاص إذا كانوا لا يقفون .

أكثر الله أيتها السلطنة من فخارك ، وجعلنا السنة فخارك . إنك فى الضيافة شاعرة الأقران ، وفى البلاد العربية فريدة الزمان . كيف لا وأنت السيف فى إكرام الضيف . تضربين من أجلنا الكسل ، وتلحقيننا بالعسل .

تروعين أيتها الحوشية الألمعية ولا تجوعين . قد كنت حديثنا وموضوع إعجابنا حتى فى بلاد الزبود ، التى تسمى المرء الحبيب والمعبود . وقد تنسى الغربية الجديدة ، غرائب عديدة ، كما حدثت فى ماويه أول بلد من بلدان الزبود^(١) شمالى عدن .

دخلنا فى أحيل ذاك النهار وهى مثل المسيمير مخبئة فى الجبل وراء الوادى الذى اجتزناه . فشنف آذاننا لما كنا مصعدين إليها صوت كان وقعه جميلاً فى ذاك الوادى الموحش وفى تلك الساعة . فاستأنسنا به إيما استئناس . كأننا عند حدود الإمام عدنا إلى المدينة والنظام . ولما بلغنا رأس العقبة رأينا على سطح من السطوح صاحب ذاك الصوت ، وهو جندى بيده البرزان (البوق) ينفخ فيه مرحباً بنا باسم أمير الجيش .

وكانت فاتحة الألفاظ . فلما دنونا من القصر سمعنا الموسيقى العسكرية تعزف نشيد اليمن الوطنى ورأينا فرقة من الجنود النظامية مصطفة خارج السور

(١) الزبود ينتسبون إلى زيد بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب .

لاستقبالنا وعلى رأسها ضابط تركي ، فترجلنا نرد السلام ، ودخلنا البوابة إلى الحوش بين صفوف من العساكر المسترسلين الشعور ، اللابس القمصان والعمائم المصبوغة بالنيل ، المسلحين بالبنادق والجنبيات . وعندما وصلنا إلى الباب يتقدمنا كاتب سر الأمير وإثنان من رجاله ، أوقفنا الحارس هناك ونادى ، بكلمة ، حارساً آخر داخل القصر فجاء الجواب مؤذناً بالدخول .

دخلنا وكانت بداية الرعب والكرب ، صعدا في درج لولبي مظلم ، ذكرتني درجاته بدرجات الهرم الكبير ، كل واحدة منها ذكة ، وعلى كل ذكة واحد أو اثنان من ذوى الشعور الطويلة ، والثياب المنيلة ، التي تفوح منها رائحة النيل الطرى السائل كذلك على أجسامهم^(١) كنت وأنا أتلمس طريقاً أتمثل القلعة بل السجن في ذاك القصر وأتصور نفسى أسيراً فيه ، فجاء الاضطراب مع التقزز يفسد علينا بهجة الاستقبال العسكرى ، وما هي إلا فاتحة الكروب ، فعند ما وصلنا إلى الطابق الأخير أوقفنا الحرس ثانية أمام باب صغير ، ثم دخلنا فإذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة إلا واحدة منها ، وهوأها وقد امتزج بالدخان كثيف فاسد ، وأرضها مفروشة بالقش والحشيش ، وإلى جانب الأربعة الحيطان عمائم بيضاء كبيرة ، أصحابها جالسون على الأرض صفوفاً ملزوزة ، وكلهم في تلك الساعة يمضغون القات بل يخزنون^(٢) وفي الزاوية عند منضدة صغيرة ، إلى جنبها مداعة ، بين أكمة من الأوراق ورزمة من القات ، رجل صغير المنكب والعمامة حاد النظر واللسان ، ناصع الجبين والبيان ، قدمنا إليه كاتب الأسرار ، فعرفنا أنه السيد الأجدد على بن الوزير أمير جيش الإمام في لواء تعز .

(١) هم يغمسون ثيابهم بالنيل ويلبسونها قبل أن تنشف لبيل الصباغ على أجسامهم ويدخلها فيسد المسام من الجلد ويقبهم حسب اعتقادهم من البرد . وقد قيل لنا إن عساكر الإمام وكثيرين من أهل اليمن يتنيلون لا اتقاء للبرد بل حداً على الحسين . على أن اليوم في هذه العادة أصبح من التقليد كما يظهر لأن السادة وهم أولى بالحدا لا ينيلون ثيابهم .

(٢) ساعة القات عند أهل اليمن مثل ساعة الشاي عند الإنكليز . ولكن القات غير الشاي . القات حشيشهم وأنيونهم والمسكر عندهم وهم يدمنونهم إدمان الأوربيين الحمر .

صافحناه وهو جالس كأنه أحد ملوك اليمن في الزمن الغابر السعيد ، فأشار إلى فتر من السجادة حشرنا فيه بين شيخين هائلين ، وكان كل من أولئك الأجلاء المحترمين ينظر إلينا شزراً كأنه يتمس لنفسه عذراً من مجرد النظر . وما أظن أننا ظفرنا بشعاع من العطف في تلك العيون ، ولا فزنا بنظرة واحدة فيها شيء من الارتياح أو التساهل .

بعد أن سلمنا على الأمير قدمنا له كتاباً من القاضي عبد الله العرشي وفيه يعرفه إما خطأ وإما تطفأً ، إلى السيد^(١) أمين الريحاني ، فظنني حضرته مسلماً من أشراف المسلمين وأراد أن يعرف إلى أي الفرعين أنتسب ، فسألني قائلاً : هل أنت حسني أو حسيني ؟

وقع السؤال على كالصاعقة ، فلبل الخاطر مني لأول وهلة وعقل اللسان ، فجالت في ذهني بل جرت كمجرى البرق صور كلها سوداء تنذر بالبلاء . أفلم يندرنا الإنكليز بالخطر على المسيحيين ؟ أفلم يحدونا عرب عدن ولحج من الزيود المتعصبين ؟ وما نحن في مجلس أميرهم وعلمائهم ، وفي قلعة ظلماتها كظلمات السجن أو أشد ، وروائعها مثل نظرات أصحاب العمائم بل أحد ، ولا نزال والحمد لله في بداية الرحلة ، وهل أنت حسني أو حسيني ؟

جاوب يا فتى . هل تكذب على الأمير فتنتسب ، وما الحسن وما الحسين في مثل تلك الساعة ؟ أذكر أني في خمس لحظات غيرت ديني خمس مرات ، فكنت أنتقل كالبرق من الحسن ، إلى مارون ، إلى الحسين ، إلى دروين . أما إذا اكتشف الأمير بعدئذ حقيقة دينك — أصدقه بالخبر يا رجل ولكن — هل تعلن أمام هذا الجمع الزيدي الرهيب مارونيتك أو مسيحيتك أو دروينيتك ، قد يوقفونك فيأسرونك ، يرجعونك إلى حيث جئت ، هذا أخف ما في البلية .
جهة أخرى أشدها .

جالت هذه الصور والأسئلة في نفسي ، جرت مجرى الكهرباء ،

(١) لا يدعى سيداً في اليمن غير من كان من السلالة النبوية . وليس هناك غير طي من الناس ، السادة وهم الذين يتسبون إلى الحسن أو إلى الحسين ، والعرب وهم الفلاحون والبدو والحضر .

أثناء ذلك أسير خوف أشد من خوفى ساعة أطلق الحواشب الرصاص ليوقفونا للفتور . وما خفت على حياتى خوفى من تعرقل مسعاى - من الفشل ، من الرجوع إلى عدن مدحوراً مذموماً - ولكنه سبحانه ، بعد أن غيرت فكرى خمس مرات فى خمس لحظات ، فتح على فقلت مجيباً : أنا عربى يا حضرة الأمير ، أحترم كل المذاهب الإسلامية ، وأحب كل العرب ، وأتمثل دائماً فى مثل هذا الموقف بقول الشاعر :

ولكل ربع من ربوعك حرمة وهوى تغلغل فى صميم فؤادى

أظن أن الأمير استحسن الجواب أو أنه أحسن أمام العلماء المدارة . وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجل بش لقدومنا بشاشة الصديق فلمسنا القلب منه فى سلامة وتبادلنا وإياه الثقة والولاء . فقال يعتب على جوابى مخاطباً الأمير : حضرته من سادات لبنان .

فبدت منه ، بارك الله فيه ، شارة القبول والاقتناع وغير الحديث دون أن يبعد كثيراً عن الدين . بدأ الأمير على وهو فصيح اللسان بخطبة رأسها النبي والإسلام وذيلها أولئك الذين يفسدون بالبدع الدين . يتقربون حباً بالمال أو السيادة من الإفرنج ويدنسون الشرف النبوى بالنياشين الإنكليزية . يوالون الكفار ويفتحون لهم حتى أبواب الحرمين . . . إلى أن قال : الإيمان بالله رأس الفلاح والصلاح ، والجهاد فى سبيل الله واجب على كل مسلم سلم إيمانه . وفى سبيل من يجاهد الملك حسين وأولاده ؟ فى سبيل الله ؟ أستغفر الله .

فتصدى قسطنطين للدفاع عن الملك وقلت أنا كلمة أثبت ما قال الرفيق فيما يختص برفضه المعاهدة مع الإنكليز . ثم قلت وأنا أتوق إلى الهواء : قد يريد الأمير أن يصلى المغرب . فأذن لنا بالانصراف وأمر كاتب سره ورجاله أن يصحبونا إلى المضيف ويعتونا بأمرنا . صافحناه مودعين فلم يقف لنا ولا وقف أحد من العلماء . فى مجالس القات نقل الترهات .

في ظل الشراع

« في ظل الشراع » كتبه المؤلف وهو مسافر من البحرين إلى العقير في الحساء . وإنك لتشعر عند اطلاعك على هذا الفصل من « ملوك العرب » بشوق إلى السفر بالجلبوت ولو مرة واحدة في حياتك . « شلنا وتوكلنا على الله » .

من حسنات الأسفار تنوع أسبابها وطرقها . وإن الإبطاء في التقديم منها أحب إلى السائح من الإبطاء في الحديث الذي اخترع ليطارد الريح فيذهب كما يقال المسافات . ما الفائدة إذاً من بخار لا يحسن النهب ؟ أبحرت من عدن ووجهتي ابن سعود فاجتزت أولاً بحر الهند في باخرة كبيرة فخمة الرياش معتدلة في سيرها . ثم خليج العجم ، فصغرت الباخرة ، وبخست العدة ، وطالت علينا المسافة والأيام . ثم قطعت فيافي العراق بين البصرة وبغداد في قطار مخلع مرجرج - هو أثر من آثار الحرب - لا شك أن قطار الشحن في أميركة أسرع منه ثم عدت من بغداد في مركب من مراكب دجلة وقد آليت على نفسي ألا أكون غير شرق كسول فلا أعد الساعات ولا أحاسب البخار والآلات . فكانت السفرة لذلك جميلة ، قصرت وإن تعددت أيامها . ثم في رجوعي من البصرة إلى البحرين خبرت في البواخر أبطأها سيراً فقلت : تباركت الأقدار في الأسفار . هي تبدل في الأسباب التي تزداد إبطاء كلما قربنا من محجتنا ، فتمرن أثناء ذلك على الصبر والتجمل ، وعلى التأمل والتفكير . وسنصل إلى تلك المحجة بالرغم عن طول المسافات وبطء المطايا البخارية والحيوانية ، اللهم إذا ثبتنا في السير والترحال .

قد كان سروري في خروجي من البحرين مثل سروري في الوصول إليها . كيف لا وكل خطوة الآن تدنيني من البيعة القصوى ، فقد ذلت من العقبات البحر والإنكليز ولم يبق أمامي غير زاوية من الخليج تأبى البخار ، وأرض لا تلين لغير الإبل . إن الساحل في تلك الزاوية، جنوباً بغرب من البحرين ، على

مسافة أربعين ميلاً من المنامة ، هو أول ما نشاهده من ملك ابن السعود . هناك العقير وشاطئ الأحساء الذى يرى من مكان فى آخر الجزيرة يدعى رأس البر . أما المسافة بين البلدين فهى رهن الشراع ، والشراع رهن الرياح . فإذا لانت كان حظك من السفر على طريقة الأجداد ست ساعات فقط . وإذا عارضت تفوز بالثلاثين . وقد تتجاوز الثلاثين إذا كنت إلى « نبتون » من المقربين .

أحبنى إله البحر فاستبقانى فى مجلسى بالجلبوت^(١) نهاراً واحداً وليلتين . إذ بعد أن خرجنا من مياه المنامة مساء سكنت الرياح ولم تتحرك بما يرضى الله والشراع حتى انتصاف الليلة الثانية . وكنت أثناء ذلك أذكر القصصى بالخير وأشكره خصوصاً على كرسى جعلته سريرى وعلى طاه أنعشنى بشيء من المرق . وبينما أنا نائم فى الليلة الثانية ، أو بالحرى مرمى كطرد فى القبة وقد برد الدم منى وتعمدت الأعصاب ، سمعت صوت الناخوذاه يصدر الأوامر برفع الشراع ، وسمعت الملاحين يرددون إنشاداً : شلنا وتوكلنا على الله ، شلنا - وتوكلنا على الله فتحركت فى معقلى الصغير وقد أنعشنى الهواء كما أنعش من الجلبوت الشراع . وشكرت مسكن الرياح ومثيرها . فقلت : لا شيل يقيناً لولاه ، ولا توكل على على سواء - شلنا وتوكلنا على الله .

كنا فى المهجع الثانى من الليل قريبين من بر ظنته الأحساء فما صدق الظن . وشد ما كانت دهشتى وخيبتى لما عامت أننا لا نزال عند بر الجزيرة . على أن الرياح تجارى إذا شاءت البخار ، وتسبق الحديد الدوار . ولا أظنك إذا كنت ملاحاً تمارينى فى ذلك . أجل ، عند ما ينتفض فيجتلى الشراع ، فقل للمسافات : الوداع . إن هى إلا ساعة حتى اجتزنا رأس البر ، وكان الهواء قد أنقل جفنى فنمت قليلاً ، ثم أيقظنى صوت الملاحين وهم إذ ذاك يشتغلون فى قلب الشراع طوعاً للريح ويرددون : صل على النبي صل عالا النبأى ! وربك

(١) الجلبوت مركب شراعى صدره ، وهو البضاعة ، مرتفع مستطيل . وفى مؤخره قبة أو عليه مسافرين يسميها الملاحون عرشه . وهو إذا كان كبيراً شبيه بالمهيلة فى العراق والسنبوك فى البحر الأحمر . إذا كان صغيراً فلا يكون له عرشه فيشبه إذ ذاك البلم . أما اسمه جلبوت ، ولا يسمى كذلك إلا فى بحرین ، فهو على ما أظن تحريف jolly boat فى الإنكليزية أى مركب للترفة لطيف .

أيها القارئ ما سمعت في أنغام الليل على المياه أطرب منها . إلا أن يكون صوت المؤذن في الخليج وهو يؤذن الفجر . ليس في صلوات الأمم كلها أدعى منه إلى الورع والخشوع ، وقلّ فيها ما هو أجمل وقعاً في النفس من صلاة الملاح في ظل الشراع .

صلى إخواني الفجر ، عند ما دخلنا ميناء العقير ، ورفعوا العلم ، علم ابن سعود ، وهو أخضر ذو حاشية بيضاء مكتوب عليه : لا إله إلا الله . وقد كان ينتظرنا هناك على الرصيف السيد هاشم وأمير القصر ، فشيننا معهما إلى البيت المعد للضيوف ، وفيه سرير أبهجنى مرآه . وأعجبت كذلك بدوق رفيق الذي علم السبب في إبطاء السفينة وقرأ في وجهي قصة الليلتين ، فركنى والسرير وانصرف .

ذكرت الأمير والقصر . فلا يظن القارئ أن القصر قصر وأن الأمير أمير . بل هي أسماء اصطلاح أهل نجد عليها . فهم لا يرغبون في الألقاب بل يزدرونها ، ولا يرون غير المساواة ، وقد ساوى بينهم دين التوحيد ، شرعاً وسنة . أما إذا شاء إمامهم أن يسمى عماله أمراء ، وقد يتضمن ذلك التحقير لمن يدعون النبالة ولا يستحقونها ، فهم لا يعترضون . وإذا شاء النجدي أن يسمى خربة له في الصحراء قصراً فلا الإمام يعترض ولا الرعية . أما الأمير الحقيقي عندهم فهو من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به أحداً ، ولا يخاف ولا يرتجى سواه . وأما القصر الحقيقي فهو المسجد .

ليست العقير بمدينة أو قرية ولا هي حتى مضرب من مضارب البدو . إنما العقير اسم لقصر من القصور التي ذكرت ، ولجمرك من جمارك نجد في الأحساء على ساحل الخليج . العقير هي إحدى موانئ السلطان الثلاثة يتبعها القطيف والجبيل شمالاً منها . ولكنها موانئ قلما يرى فيها غير المراكب الشراعية ومن العقير تبدأ الطريق الشرقية إلى نجد .

أما القصر فهو بناء كبير مستطيل يقيم في جناح منه الأمير والضيوف ، ويستخدم الجناح الآخر للجمرك وللحامية التي لا تتجاوز العشرة الأنفار . وأمام القصر على الساحل ساحة كبيرة ترح فيها الإبل وتنزل إليها البضاعة ،

فتبادل سفن الصحراء وسفن اليم أحماها . الخام والأرز والسكر من بمباى
والنפט من عبّادان — أحملها يا بعير إلى ما وراء الدهناء . والتمر من الحساء
والجلود والصوف من سدبير والوشم ، والسمن من الخرج والأفلاج — خذها
يا جلبوت إلى البحرين لتنقل من هناك إلى ما دون الخليج والبحار .

ومن فلسفته :

بذور للزارعين

إن حسنة واحدة تأتيها . لخيرٌ من ليالٍ بالصلاة تحييها .
إن الأمين وإن كان كنوداً . لخير من المدغل وإن كان هجوداً
إن التبعّد لئى الصالحات . لا فى تمتمة الصلوات .
وربّ صغار يلعبون . أصدق إيماناً من شيوخ يتورعون .
وربّ محسنة فى موبقات الوجود . أصح ديناً من راهبات السجود .
وربّ كافر عمال للخير . أحب إلى الله من راهب فى الدير .
السالكون عملاً وفكراً . خير من السالكين ذكراً .
أنت السالك . يا من تطابق بين أقوالك وأعمالك .
الندامة حباً بالغفران . كالإحسان حباً بالشكران .
وقد قال بلزك — الندامة الشهرية . إنما هى خباثة أبدية .
المواساة ، خير العبادات . وممرضة تضمد جرح الشرير خير ممن يصلون
من أجله .

إن روائح الأدوية عند من أحببت أن تخدم الله لأذكى من رائحة البخور .
والنور الضئيل المنبعث من عين المريض الذابلة لأجمل من نور الشموع فى
الهيكل .

لنخدم الله بالأعمال . ولنسبحه بالأعمال .

الحكيم من وجد سعادته في عمله فلا يشغل فكره ولا يضيع وقته في التفتيش عنها في البيت أو في المدينة أو في الجبال أو في قصور الوهم والخيال . ومن يتلاهي قانطاً في تشريح نفسه وأفكاره فليقف على أسباب بؤسه وشدته كمن يزرع غصناً من الورد ويقتلعه كل يوم ليستطلع حال نموه . غصن نفسك تعده بالتريبة بدل أن تقتلعه صباحاً ومساءً لترى ما إذا كانت ظهرت فيه جذور السعادة أم لا . عملك واضب عليه فتنسى أنك سعيد وهذه لعمري السعادة بعينها .

* * *

كل عمل يساعد على نمو قوى الإنسان الحيوية وحفظها ، جسدية كانت أو عقلية أو روحية وعلى حصر لوازم الحياة فيما يتطلبه الناموس الطبيعي فقط هو عمل صالح شريف .

* * *

الحكيم من صار إلى غرضه دون أن يلوى على شيء مما حوله من أشواك الضغائن والأحقاد . ومن أشباح اللؤم والفساد .
سر أخى في أمان الله ولا تقف بعد أن تخطو الخطوة الأولى . لا تقف فتسبق . ولا تلتفت ورائك فتسقط . نحن في زمن قد يكون الوقوف فيه تفهقراً .
سر في أمان الله وخذ هذا البيت من الشعر رده في طريقك كلما اجتزت عقبة من العقبات .

وما تجهمني ليل ولا بلد ولا تكائدي عن حاجتي سفرُ
العامل هو يد السعادة اليمنى ويدها اليسرى الاقتصاد .

* * *

لتكن غايتك أكبر من مقدرتك فيصبح عملك اليوم أحسن من عملك البارح وعمل الغد أحسن من عمل اليوم .

* * *

الفضيلة الكبرى في الأعمال هي أن يكون كل عمل بذاته الغاية والواسطة . أن تكون لذته فيه لا في نتيجته .

السر في النجاح في أى عمل كان هو أن تقضى نصف وقتك مفكراً ونصفه عاملاً فتعرف إذ ذاك غرضك وتسير تَوَّأً إليه . تعرف إذ ذاك الطريق القويمه إلى محجتهك فتسلكها . وكَم أناس يفشلون لأنهم لا يعرفون حق المعرفة محجتهم أو لا يهتدون إذا عرفوها إلى أقرب وأقوم الطرق إليها . فهم ينكتون في التراب كاللدجاج ويكثرون من الحركة التي لا بركة فيها ومن الصباح الذى يجفل أطيبار الفلاح فيثيرون الغبار ويزعجون الجيران . والجوهرة التي يطلبونها تختنى أثناء ذلك تحت التراب الذى ينكتون فيه ويصبحون . فلو عملوا كالحكماء لا كاللدجاج فبحثوا على مهلهم مفكرين لما كانوا يزعجون أحداً بغبارهم وصياحهم ولما كانت حركتهم قليلة البركة . لو فتحو عيونهم وتبصروا لما كانوا يدوسون بأرجلهم الجوهرة التي يطلبونها .

إن مظاهر الحياة وحدودها عند الغربيين اليوم لواضحة جلية . ولا ظل يصل طرفى البياض والسواد في حالهم الاجتماعية . لا غسق يصل ليلهم بنهارهم ولا طريق تجمع بين عمرانهم ودمارهم ؛ فهذه عندهم منطقة الغناء . وتلك منطقة الفقر والشقاء . هذه سهول العمل والتجارة . وتلك حزون البطالة والقذارة . هنا فريق العلماء والحكماء . وهناك جموع خيم عليهم الجهل والتعصب والبلاء . فالفقير عندهم هو الفقير مجسداً . والغنى هو الغناء موحداً . والغريب في أمر فقرهم وغنائهم هو أن البقرات العجاف اللاتي تأكلهن البقرات السماء كل يوم يتضاعفن بالنسبة إلى تعدى هؤلاء عليهن . هذه حال الغربيين النازعين اليوم إلى الاشتراكية ، وأما حالنا فليلنا لا يعرف من نهارنا . وعمراننا لا ينفصل عن دمارنا . إنما نحن ظل الأشياء لا فقر عندنا ولا غناء ولا علم يذكر ولا جهل ولا عمل ولا بطالة . غريب أمر الشرقيين فما هم في حياتهم سوى حرف وصل بين الأضداد . وقد تكون هذه حقيقة الحياة وقد يكون الحق في جانبنا . ولكننا إزاء الغربيين الذين بدأوا يزاخموننا في أرضنا نؤكل لا محال كما نؤكل عندهم البقرات العجاف كل يوم إذا كنا لا نخرج من ظل الأشياء ونشمر عن ساعد الجحد والعناء .

إن البلاء لمستقر . فى جهاد الإنسان المستمر .
 إن رأس الشقاء البشرى . فى هذا الأزدحام الحضرى .
 أحب فى صديقى الإباءة . أكثر من المرودة . أحب منه الأنفة وإن كان
 فيها عنيفاً . ولا أحب الصغارة وإن كان فيها لطيفاً .
 الصديق الأبى الأنوف وإن جمده وجه وداده . خير ممن يقبلك متشوقاً كل
 مرة يراك وقلبه كثرة أجداده .
 الحر الكريم يظل صديقك وإن عاداك . والخسيس اللثيم . هو عدوك
 وإن والاك .
 لا تدقق فى درس أخلاق صديقك « وقتلته » . إن كنت تطمع فى دوام
 محبته .
 لا تتوقع من صديقك أن ينصرك إذا كنت مخطئاً . ولا أن يجد بأمرك إذا
 كنت فيه بطيئاً .

• • •

الصداقة الحقيقية مثل كل عمل عظيم هى التى يشترك فيها القلب والعقل
 والضمير . فالشعور إذ ذاك يكون غذاءها . والإدراك مصباحها . والعدل ميزان
 الاثنتين . وإن رجحت إحدى كفتى الميزان فسير الصداقة إلى الامتهان .
 وتصبح أخيراً كهروس الشعر أو كبنيت الخوان أى لإنها تصير إما خيالية وإما
 مادية . فتعيش يومها مشوهة ، إما فى الخواس ، وإما فى الأوهام . وفى كلا
 الحالين . لا عدل ولا لذة فيها للصديقين .

• • •

الحياة مضيق بين أبعديتين . وميض برق بين غيمتين غامضتين .
 إذا تخاصم من أصدقاتك اثنان . لا تسبق فى الإصلاح بينهما الزمان .
 فهو للعداء . خير دواء . وإن عاقبة الإسراع فى وصل جبل الوداد . هى غالباً
 كعاقبة الجرح المندمل على فساد .

• • •

أشرف الحب حب من لا يدعك تشعر بولائه . قبل انقضائه ؛ فهو لا ينقذك وداده في السراء . ليتقاضاه مع الفائدة في الضراء .

• • •

شر الأصدقاء صديق لا يعتبرك من أكفائه فإن ظن نفسه أكبر منك يهبطك في حبه وتقلبه . وإن كان أصغر منك يغيظك في تودده وتحببه .

• • •

أحب من الجمال ما كان فيه شيء من القباحة . ومن الحركة في الجمال ما كان فيها كياسة وملاحة . ومن السكوت في الجمال ما كان فيه كثير من الفصاحة .

أفضل أن أشاهد كل يوم عشر مرات سحنة منكورة وفيها بهاء وغرابة وذكاء . على أن أرى مرة في الشهر طلعة جميلة خاسئة والنفس فيها جذباء .

• • •

من نهج لحاجاته المادية وغاياته الدنيوية منهج التدين والورع الكاذب والرياء والتنطع كان بعيداً عن الدين وعن الله بعد هذه الأرض عن أبعد السيارات من الشمس .

الدين الحقيقي ما أنار القلب من الإنسان والضمير فيهديه في الحياة الدنيا خير طريق إلى خير الأبواب في الآخرة . ومنى كان ضمير جارى كنور الشمس حياً نقيماً وقلبه كوردة تفتح في الفجر لتستقبل ندى السماء لا فرق إذ ذاك عندي أن ذكر مع الدراويش أو سجد مع اليسوعيين أو اغتسل في نهر التنج مع البوذيين . فهو المؤمن الحقيقي . هو الصادق في دينه . هو رجل الله الأمين .

• • •

بحث الفلاسفة الأولون في الكون والحياة فبدأوا بأبحاثهم من العلة إلى المعلول من المركب إلى البسيط من الأعلى إلى الأدنى . بحثوا فعملوا فاعتلوا فماتوا وما أوزوا العالم سوى الأوهام والشكوك . وعلماء اليوم يقبلون الآية فيبحثون في الحشرات والجواهر الحية والمكروبات ابتغاء الوصول إلى ما بدأ به فلاسفة الماضي . وهؤلاء

يحللون ويركبون ويعلمون فيعتاون فيموتون قبل أن يصلوا إلى ما يزيل شيئاً من الأوهام والشكوك . النتيجة إذاً واحدة إن صعدنا من الأدنى إلى الأعلى أو سقطنا من الأعلى إلى الأدنى . الكون كيفما نظر إليه العالم يظل فوق علمه . إن هذا السر العظيم وإن رصدت نجومه بالتلسكوب أو روقيت جواهره الحية بالمكرومكوب أو تحللت أنواره وألوانه بالسبكتروسكوب يظل سرّاً عظيماً يموت راعى الغنم فيه كموت سقراط أو سبنسر . وسكوت القبور يتاجى سكوت النجوم والإنسان بينهما خيال يزول .

المتعصب على رأس الأَشهاد وإن كان من طبقة واطية من الحيوانات الناطقة هو خير من متعصب يتظاهر بالتساهل .

المتعصبون فصيلة غريبة من الحيوانات ذوات الاثنيين ومثل سائر الفصائل الحيوانية فيها أنواع وأشكال . وأهم ما هو معروف منها اليوم ما كان كالثعلب أو كالدب أو كالبزاقة أو كالعقاب . فالأول جبان يتعصب في ظلام الليل ويخاف في ضياء القمر خيال ذنبه . والثاني يفترسك ويفترسني لو كان بإمكانه إن كنا لانرى ما يراه أولاً نصلى وراءه . والثالث لا يهجم من العالم سوى صدفته ونقطة المطر التي يبل فيها قرنه « وحافة » القديس الذي يلتجئ إليها من نور الشمس . وما سوى ذلك فهو لا يدرك شيئاً من وجوده أو مما فوق أو تحت وجوده . والرايع يظل في الفضاء مترفعاً مترفضاً إلى أن يشم رائحة الجثة فينقض عليها كما لو كانت من المن والسوى . وهناك نوع آخر قديم العهد . . . فهمت معنى إشارتك وسأقف عند هذا الحد في التفصيل . . . على أن ذاك المخلوق الشريف الجبار الذي يتعصب لحق الله ودين الله . فوا أسفاه قد انقرض نوعه من زمن طويل ولم يعد لك أن ترى منه إلا العظام في الأنتكخانة .

• • •

الناس أشباح تحركها الأغراض والأهواء . وتتقاذفها في بحار الحب والبغض الرياح والأنواء .

الدين دينان دين نظرى ودين عملى . فالدين النظرى إنما هو رغبة الإنسان

في دوام الحياة الروحية وخشوعه أمام سر الأسرار العظيم وإدراكه أن هناك صلة خفية تربطه بأبديتين إلهيتين . أبدية وراء المهدي وأبدية وراء اللحد . والدين العملي الحى إنما هو العمل بنواميس الطبيعة أى شرائع الله المنطبعة على لوح قلب كل إنسان فإن كنت يا أخى من الذين يتقون الله فلست إذاً من الخاسرين . ضع آمالك في هذه النجوم فوق رأسك وفي هذه القبور تحت قدميك وسر في طريقك يا أخى ولا تبال . لا تبال بمن يتجنون عليك باسم الدين ويهددونك بغضب السماء وبنار الجحيم إذا كنت لا تعمل بتقاليدهم ولا تسجد لأصنامهم ولا تتمم صلواتهم . سر في طريقك ولا تبال . أما إذا كنت لا تستطيع أن تعزز جانب نفسك وحريرتك فتتصر الحق على الباطل في كل وقت ومكان وفي أى حال كان - إذا كنت لا تستطيع أن تحافظ على نور الله في قلبك وعلى عدل الله في ضميرك فالأوفق لك أن تعود إلى القطيع الذى انفصلت عنه . عد إلى الخطيرة التى خرجت منها فكلب الخراف هناك يحميك في الأقل من ذئاب الدهريين .

• • •

إن فيّ وفيك شيئاً من السديم وشيئاً مما وراء السديم . بل فيّ وفيك سر أبدى عظيم . لا يكشف الحديث من العلم غامضه ولا القديم . الجرذان في قبوك لا يعرفون ما إذا كان القبو ثابتاً إلى الأبد أو إلى حين . ولا يعرفون من شيده ولماذا . إنما هم يعيشون في زاوية منه أو بالحري في ظلماته فيجدون في طلب رزقهم ويدافعون عن أنفسهم ويهربون من وجه الحيوانات المتسلطة عليهم فيضاعفون نسلهم ويضاعفون في ذلك عذابك . هذه زبدة حياتهم ومصلها في القبو الذى بنيته لنفسك لا لهم . والبشر في هذه السيارة الصغيرة التى تدعى الأرض إنما هم - جل شأنك - كالجرذان . فإننا نعمل كأحقر المخلوقات في الظلمات ولا نعرف ما إذا كان العالم ثابتاً إلى الأبد أو إلى حين . ولا نعرف الغاية التى من أجلها شيد هذا القبو الذى يدعى الأرض ولا الغاية من وجودنا فيه فضلاً عن قصد البناء العظيم الذى . . . هس ؟ إنما نحن كالجرذان .

على الأديب أن يبدأ بنفسه فيؤدبها بعلمه . وكم نقرأ في الجرائد اليوم من النصح والإرشاد والتنديد والانتقاد فلا نكاد ننتهي من قراءة المقالة حتى نقف مُدهشين عند اسم كاتبها العظيم ما شاء الله! وما ضر هذا الناقد الناصح المرشد لو احتل في بيته وقفل الباب جيداً وسد النوافذ بالقطن أو بورق الخرنوب وبدأ بنفسه ، أما ينبغي أن تسمع أذنه صوته ويشعر ضميره بما يجترئ عليه قلمه ؟ أعود بالرب الأحد من حارص نقد . وون النقائات في العقد .

لكل نوع من المادة مزية لا تنفصل عنه . لكل نوع منها فضيلة من شأنها الصعود من الأوطى إلى الأعلى . فالغاز مثلاً يتبدد فيتجمد في الفضاء والماء يتبخر فيتكون غيوماً والأزوت يحل في النبات فينمو ورقاً وأزهاراً وثماراً . ويحل في ذوات الأربع فتتنفس وتنشأ وتمشى . ويحل في الإنسان - وهذه هي العقدة التي لا يحلها عقل الفيلسوف ولا يقطعها سيف الإسكندر فإن كان في الأزوت جرثومة الفكر والخيال هل تكون هذه الجرثومة كامنة يا ترى في أوراق الشجر وفي غريزة الحيوان كما تظهر نتائجها في حياة الإنسان ؟

• • •

إن الغناء الحقيقي لى الأشياء التي يستطيع المرء أن يستغنى عنها . وسأتولى بنفسى شرح الآية هذه المرة . إذا كنت فقيراً ولم يكن لى رغبة فى نوافل العيش وكشاكشه كالعربيات والخليل المطهمة والطنافس والرياش ودواعى الرفاه كلها فأنا إذاً الغنى . وإن كنت متمولاً وكان دخل أموالى لا يكتفى لأدب المآدب وإحياء لىالى الرقص والغناء بل لا يكتفى لدفع أجور خدائى وعبيدى وساحة خيلى فأنى إذاً لمن الفقراء . كم من الأشياء تغنيا إذا استغنيا عنها وكم من الأشياء نفقرنا إذا طلبناها كالأطفال واستخدمناها كالمجانين !

• • •

فى زخارف المدنية المعبودة . مئة مصيبة منقودة .
قد سئمت الخير الذى يعمله الأتقياء ابتغاء مرضاة الله . قد سئمت الإحسان الذى يتخذه بعضهم مهنة للارتزاق . فما أكثر مثل هؤلاء المحسنين فى

العالم وما أقل الإحسان الحقيقي الخالص من كل ريب . الصافي من كل عيب . قبل أن تكون محسناً يا هذا أحسن سلوكك وآدابك . قبل أن تعمل مقدار ذرة من الخير كن أنت من بنيه . هناك امرؤ أحسن من المحسن وهو الذى يعيش لنفسه حياة صالحة صافية . هو الذى لا يعرف الخير عند ما يصنعه هو الذى لا يبتغى مرضاة الله ولا مرضاة الناس ولا الشهرة ولا المجد من برة وإحسانه . عد إلى كتب العرب واقراً فيها قصة عكرمة الفياض يا سيدى الأمير ولا تنس أن تقرأ أيضاً قصة عمر بن الخطاب والعجوز . ومتى حملتكم الحمية والغيرة إلى الإحسان فاعمله ليلاً وسراً كى لا يراك أحد من الناس فيشوه برك بمدحجه وإطرائه . أنقذ الغريق وألبس ثيابك وامش . فإن اللذة فى العمل لا فى نتيجته .

• • •

كلنا فى هذا المجتمع الإنسانى ضائعون . كل منا كالولد التائه فى الغاب يغنى على ليله ، لينسى خوفه وشجاه . لكل منا نعمة يترنم بها فتنسيه نوعاً حقيقة حاله . تشغله قليلاً عن نفسه . كلنا بكلمة أوضح مستعبدون للعرض بعيدون عن الجوهر . كلنا نعيش للمنقول لا للمعقول للمصطلح عايه لا لما هو أصلح منه . الطف اللهم بعبادك .

من أجل ما قرأته فى الكتب المقدسة فاتحة القرآن . فهى صلاة جديرة بأن يرددها بقلب حى كل إنسان كل يوم فى السنة .

« إياك [رب العالمين] نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم » — أى والله فإن الإنسان وإن كان من أرقى البريطانيين أو من أرقى العثمانيين إن كان من باريس أو من نيويورك أو من أطنة أو من داهوى هو فى أشد حاجة إلى الهداية اليوم مما كان فى أيام النبي داود . أو فى عهد عاد وثمود .

• • •

إن من يكتفى بمسحة من العلم والحكمة كمن يكتفى بغسل وجهه إذا دخل الحمام . وليس بالأمر الصعب على مثل هذا أن يفوز بقصب السبق إما فى

الثقالة وإما في الرعونة . وإذا ركب إلى غرضه فرس سيبويه يعود حاملاً في يده القصبتين . فنقرأ إذ نراه التعويدتين ! .

* * *

قل تبارك السر الذي في ولا تحفل بضجيج الناس وضوضاء الأمم . عش قنوعاً هادئاً ساكتاً معتزلاً وواظب على نظافة العقل والقلب كما تواظب على نظافة الجسد فلا تكون من الخاسرين . تلاه في العمل والنمو عن عقبات الحياة وهمومها . وبكلمة وجيزة كن مشمراً ولو بين القتاد . فلا تحزن يوم يميئك ملك الحصاد . لا يختلف اثنان في أن الأولاد يطلبون الأشياء دون أن يدركوها فيلحون ويلبظون ويصرخون وهم لا يعقلون . ومن الرجال الراشدين من هم أيضاً كالأولاد فيطلبون ما لا يدركون من الأشياء ويصرون على أمورهم ويلبظون على طريقتهم الخاصة إما بالأيدي وإما بالأرجل وإما باللسان وهم أيضاً لا يعقلون . تراهم يروحون ويحيثون دون أن يعرفوا من أين وإلى أين ويركضون ويضمجون وهم كالأولاد لأحكام الحلاوى والقضيب خاضعون . هذه خزائنة الكعك والحلواء التي يعرفها الأولاد وهذه العصا التي لا يجهلون طعمها إذا هم أكثروا من الرواح والنجىء إلى الخزائنة . وكم أناس لو كسرت الحكومة عصاها يموتون أمام خزائنة اللذات شهداء الأهواء والشهوات . كم أناس يسرقون الخبيص ويكبرون على البوليص . أعود بالرب الجبار . من الصبيان الكبار .

* * *

العواصف تقوى العواطف وتثيرها . فالنبت الذي تلويه الأهوية وتطويه يكون أشد من ذلك الذي ينمو وينور في بيوت الزجاج .

* * *

الضغط على الأنفس والعقول إلى حد محدود يولد من القوى الكامنة ما لا يخلو من سمو الفكرة والإدراك . وأما إذا تجاوز هذا الحد فيولد اليأس والحمول . وفي اليأس متى انتفضت عنه غبار الحمول قوة خبيثة قتالة لا عقل فيها ولا إدراك . في كل إنسان جذوة من الخير لا يخمدها رماد الغواية والضلال مهما تكاثفت

فوقها . فى كل إنسان شىء من الحب والحقيقة مهما أوغل فى المنكرات ونكب
 عن الصراط المستقيم وإن أنا صافحت مجرمًا فإننى أصافح تلك الجذوة الكامنة
 تحت رماد شقائه ، وذلك القليل من الحب الراقد تحت بلائه . إننى أصافح
 الشقى الباغى لأنه ساعة يقف أمامى هو من الصالحين ولو إلى حين . ولا يهمنى
 إذ ذلك ما كان من ماضيه ولا ما سيكون من مستقبله . لا . فإنه لا يصدنى عن
 مصافحته سيئةً أتاها أو جناية اقترفها أو عار أحاق به . ساعة أخذ يده بيدي
 تتصل كهربية جسمى بجسمه وتزهله لمصافحتى فى تلك الآونة .

هذا هو المختار من أدب أمين الريحانى نقدمه مائدة شهية للقراء عسى أن
 يروا فيها ما رأينا والعصمة لله وحده .

المراجع

- كتب أمين الريحاني .
الثورة العربية الكبرى . لأمين سعيد .
يقظة العرب . بلجورج أنطونيوس .
أعمدة الحكمة السبعة . للكولونيل لورانس .
حياة البطيريك مار بطرس إلياس الحويك . للخوري إبراهيم حرفوش .
تاريخ لبنان المطول ، جزءان . للدكتور يوسف مزهر .
بيروت وتاريخها . للأب لويس شيخو .
الساق على الساق فيما هو الفاريق . لأحمد فارس الشدياق ، طبعة باريس .
المقتطف ج ١ مجلد ٦٥ .
الهلل ج ٦ السنة ٣٠ .
أمين الريحاني . لألبرت الريحاني .
أمين الريحاني . لحارث طه الراوي .
مجلة اقرأ العدد ١٣١ لمارون عبود .
الغريال . لميخائيل نعيمة .
شعراء القصة والوصف في لبنان . لعيسى ميخائيل سابا .
كتاب علم الأدب . ج ٢ . للأب لويس شيخو .